الباب العاشر

فى معاملة الأحباب والخادم والأعداء والأصحاب

وبه تمت أبواب الكتاب

قال الشيخ أبو المحاسن الراوى من الأدب الأحاسن : فلما أبان الحكيم عن هذا الفضل الجسيم وكشف نقاب البيان عن مخدرات هذا التبيان ، فتلألأ من وراء سجيف ألفاظه وجوه معانيه الحسان ، عظم فى أعين الأعاظم ، وكبر لدى الأعراب والأعاجم ، ورفعه أخوه وعظمه ذووه ، فأضاء مناره وعلا مقداره ، وملأ الآفاق أنواره ، ووقع من الملك على الاعتماد عليه اختياره ثم استزاده من فيض هذا العيوب واستسقاه من خوض هذا الشؤبوب[1] ، واستطعمه من أخبار العقاب واليعقوب إن كان ثَمَّ بقية ، تجلو القلوب الصدية ، فامتثل الإشارة وحسن العبارة .

[٨٣] **وقال** : ثم أن أبا الحجاج دعا القبيح أبا الدجاج ، واختلى به دون أصحابه وقال له : أعلم يا جليس الخير وأنيس الطير ورئيس الدير ، أنى تحملت من اليؤيؤ المنة العظيمة والجميلة الجسيمة ، حيث أرشدك إلى بابى ، ونظمك فى سلك أصحابى ، ولا جرم أنه قام بما يجب عليه ، وعرف مقدار إحسانى وميلى إليه ، وأنه لأوثق أعوانى وأصدق خلانى ، وصاحب قديم ومخلص عديم النظير نديم ، وصديق كافى وناصح مصافى ، وإنى لأتيمن بطلعته وأتبرك بمشاهدته ، واستنجح بآرائه ، واستصبح فى المهمات المظلمة بلامع ضيائه ، ولقد حصل منك على عضد معاضد وساعد مساعد ، وكهف وذخر وسند وظهر ، فإياك أن تترك ذيل مودته أو ترغب عن صحبته ومحبته ، وإن تقتصر يا ذا الوقوف فى صداقته على الوقوف ، فأفضل المحبة وأكمل المودة ما تزايد على مر الدهور ، وترادف على كَرّ العصور ، وثبت أصله وغزرت فروعه ، وفاض من سويداء القلب على مجارى الجوارح نبوعه ؛ بحيث يقع الاتحاد ، ويمتزج بالصفاء الوداد ، فقد قيل : لا تصبح المحبة بين اثنين حتى يصيرا كالعينين حيثما نظرت إحداهما شزرا مالت معها

---

(١) المياه المتجمعة من شدة إندفاع المطر .

تابعة الأخرى ، بل يصيرا كالنفس الواحدة لا كل واحدة على حدة ولا كما تقول الملاحدة ، بل يكمل لكل واحد بالآخر الهنا ، ويحصل له بوجوده السنا ، وإذا خاطبه قال : يا أنا ولا تعمل يا أكمل كما قيل :

مـلأتَ حُشَاشَتى شَـوقَـا وحُبَّـا　　　فَـإنْ تَـرمَ الزيـادة هـاتِ قَلبـا

فإن الفتاح عنده الفتوح ، وباب الفضل والزيادة مفتوحَ ، وكرم الله لا يضاهى ، وفضله كعلمه لا يتناهى وانظر يا فضيل ، وذا العلم العريض الطويل إلى ما قيل وهو :

أيهـا السـائلُ عَـنْ قصَّتِنَـا　　　أنـا مَـنْ أهْـوى ومَـنْ أهْـوَى أنـا
نَحـنُ روحـان حلَلْنَـا بدَنَـا　　　مـن رآنـا لَـمْ يُفَـرِّقْ بَيْنَنَـا
نَحْنُ مُـذْ كُنَّـا علـى عَهْـد الهَـوَى　　　تُضْـرَبُ الأمْثَـالُ للنـاس بنَـا
فـإذا أبْصَـرتَهُ أبْصَرتنِـي　　　وإذَا أبْصَـرتنِى أبْصَرْتَنَـا

وألطف من هذا وأرصن ما قاله القائل وأحسن وهو :

أنَـا والمَحْبُـوبُ كنـا فـى القِـدَم　　　نقطـةُ واحـدةُ مـن غـيرَ مَيْـن
فَبَرَأنَـا اللـه إذَا أظْهَرَنَـا　　　مهجـة واحـدة فـى بَدَنَيْـن
فـإذا مَـا الجسْـمُ أمْسَى فانِيَـا　　　تَلْتَقِينَـا وَاحـداً مِنْ غَيْـر بَيْن

ولقد ذكرك عندى بأنواع الفضل وبوفور التجارب والعقل ، وهذا يدل على نصحه وقوة دينه ، وصدقه فى المحبة وحسن يقينه ، ولم يذكر غير الواقع ولا جازف فيما أنهاه إلى المسامع ، بل قال قليلا من كثير وقطرة من غدير ، ولم يخبر بذلك غير خبير فإنى أعرفك كما عرف ، ووقفت على فضائلك كما وقف ، ثم أنت عندى فوق ما وصف فأريد منك نصائح بالخير لوائح ، تتضمن فوائد وعوائد وفرائد ، تكون لنَهَمِ الحكمة موائد ، ولشهم الحكام قوائد ، ولنحور ألباب المعقول وأرباب المنقول قلائد ، ولضبط أساس الملك والدين قواعد وعقائد .

فتلقى مثاله بالامتثال ، وقبل الأرض فى مقام العبودية ، وقام وقال : لتحط العلوم الشريفة والآراء العالية المنيفة ، أن صانع العالم تعالى وتعاظم ؛ بنى أمور المبدا والمعاد ، وما بينهما من معاش مستفاد على دليلين عظيمين جليلين .

أحدهما : العقل ؛ الذى هو مناط التكليف .

وثانيهما : قواعد الشرع الشريف ، فإن أردت أن تكون سعيد الدارين فاستمسك بأذيال هذين الدليلين ؛ أما العقل فهو الدليل القاطع على وجود الصانع ، وهو مستقل بالقطع غير محتاج إلى السمع ، وكما هو مستقل بالدلالة على وجود ذاته ؛ كذلك هو مستقل بالدلالة على تحقيق صفاته ، ثم ورد بذلك الشرع فتأكدت فى وجود الصانع دلالة العقل بالسمع .

وأما وحدانية الصانع فكل من العقل والنقل دليل عليها قاطع ، وقد تظافرا بالاستباق إليه وتظاهرا فى الدلالة عليه بقول الكافر يوم المصير ﴿**لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [الملك:١٠] .

وبالعقل والسمع يستقيم أمر المبدأ والمعاش ، وبالسمع فقط ميت المعاد عاش ؛ لأن أمور المعاد من الشرع تستفاد ، والعقل فى ذلك تابع سامع لأوامر الشرع طائع ، والمسموع فى ذلك دليل قاطع .

وعلى كل تقدير أيها الملك الكبير فاجعل العقل وزيرا ، تجده لك فى ظلمات المشكلات سراجا منيرا واتخذ النقل هاديا ونصيرا ، يكن بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ، وعامل الرعية بالعدل يعاملك الله بالفضل . واعلم أن الدنيا فى معرض الزوال وأنه لابد عنها من الانتقال ، وأن الله سبحانه وتعالى وجل سلطانه جلالا ، اقتضت حكمته وجرت بين عباده سنته ، أن يكون الإنسان على خلاف ما فطره الرحمن ، فإنه خلقه

للعبادة وركّب فيه عناده ، وأقامه للعمل وجبله على الكسل ، فأمره بالصلاة وهو كسلان ، وبالصوم وهو شهوان ، وبالزكاة وحبب إليه المال ، وبالحج وكره إليه الانتقال ، وبالرضا وركز فيه الغضب ، وبالتسليم والصبر وخمره[1] بالضجر والصخب ، وبالتواضع ووضع فيه التيه ، وبالتخلق بأخلاق خالقه وفيه ما فيه ، وحكم عليه بالموت وقد تحقق أنه ليس له منه فوت ، وهو يكره عن الدنيا التحويل ، وأقل أقسامه أنه يحب العمر الطويل .

وعلى هذا قد تعود أن يفعل فى المكان المتزود أفعال المقيم المؤيد ، والدائم المخلد ، وبنى بناء من لا ينتقل ، وعن قليل يتركه ويرتحل ؛ لا سيما من تعلق بالدنيا قلبه ، وتشبث بالمال والولد والجاه والتحكم حبه ، وقد أخبر العزيز الوهاب فى أصدق كتاب وأوثق خطاب ، فقال : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالبَنِينَ وَالقَنَاطِيرِ المُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالخَيْلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المَآبِ﴾ [آل عمران:١٤] .

فالنفس مائلة إلى الإقامة وراغبة فى دوام السلامة ، تحب طول العمر فى الزمان ، وإن أحوجت الثمانون السمعَ إلى ترجمان ، وقد قيل :

وأحْسَنُ ما كانَ الفَتَى فى زَمَانِه مَعَ السَّعْدِ والجَاهِ العظيمِ مُعَمَّراً

وأشهى ما سمع الحاكم وألذ ما تلقاه من قول الناظم قوله :

فلا زلْتَ بينَ الوَرَى حاكِماً بجاهٍ عريضٍ وعمرٍ طويلِ

ولقد بلغنى يا ملك الزمان أن الملك العادل أنوشروان ، كان بنى أساس ملكه على العدل ، وعامل رعيته بالإحسان والفضل ، ويكفيه من الفضائل وحسن الشمائل ، قول سيد الأواخر والأوائل : «ولدت فى زمن الملك

---

(١) أى خالطه .

العـادل»[1] وقـال الرحمـن فـى محكـم القـرآن ﴿إِنَّ اللَّـهَ يَأْمُـرُ بِالْعَـدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل:٩٠] .

وقد قيل فى الأقاويل : لا ملك إلا بالرجال ، ولا رجال إلا بالمال ، ولا مال إلا بالعمارة ، ولا عمارة إلا بالعدل ، فلا ملك إلا بالعدل .

ومـن أقـوى الصفـات العدليـة عمـارة بـلاد الرعيـة ، وبـذل الجهد فـى العمـارة ليكـثر الربـح وتقـل الخسـارة ، فـإذا عمـرت البـلاد وترمـم الطريـف والتلاد، حصلت الأموال ، وكثرت الرجال ، وانتظمت الأحوال .

[٨٤] فقد بلغنى يا ملك الزمـان ؛ أن الملـك أنوشـروان كـان مـارا فـى سيرانه بين جنده وأعوانه ، فرأى شيخا كأنه قوس قطان نثر على رأسه قـزع أقطان[2] ، وهو فى بعض البساتين يغـرس نصـب تين ، فتعجـب مـن انحنـاء قامته وبياض هامته ، مع شدة حرصه وتعبه ، على نصـب غرسـه ونصبـه ، فقال له : يا ذا التجـارب ومـن هـو مـن شـرك الفنـاء هـارب ، إلامَ ترتـع فـى ميادين الأمل وقد تطوقت بأوهـاق الأجـل[3] ، تبنـى وأركـان جسدك واهيـة ، وتغرس وقوائم بدنك كأعجاز نخـل خاويـة ، وربيـع شبابك قـد اسـتولى عليـه خريف الهرم ، وصيف وجودك قد أدركه شتاء العدم ، ومحت نسيم طراوتـك

---

(١) الحديث ذكره العجلونى فى كشف الخفا (٢/٣٤٠) وفيه : ذكره الصنعانى بالتنكير ، وقال : إنه موضوع ، وقال فى المقاصد : لا أصل له . وقال الحليمى فى الشعب : لا يصح هذا الحديث ، وإن صح ؛ فاطلاق العادل عليه لتعريفه بالاسم الذى يدعى بـه لا يوصفه بالعدل والشهادة له بذلك ، أو وصفه بذلك بناءً على اعتقاد المعتقدين فيـه أنـه كان عدلا كما قال تعالى ﴿فما أغنت عنهم آلهتهم﴾ الآية . أى ما كان عندهم آلهة . ولا يسمى رسول الله ﷺ من يحكم بغير حكم الله عادلاً . والله أعلم .

(٢) قزع أقطان: قطع قطن صغيرة منثورة ، أى أن شعره صار أبيض كالقطن لكبر سنه.

(٣) أوهاق : مفردها وهق : وهو الحبل تتقاد به الدابة ، أى قيود الأجل .

عواصف الذبول ، ومسحت قوى عبالتك[1] بقواصف النحول ، وقد آن أن تغرس للآخرة ، فإنك قد صرت عظاما ناخرة .

فقال : يا ملك الزمان وعادل الأوان ، قد تسلمناها عامرة فلا نسلمها غامرة ، قد غرسوا وأكلنا ونغرس ويأكلون ، وفى الحقيقة كلنا زارعون وغارسون :

لَقَدْ غَرَسُوا حتَّى أَكَلْنَا وإنَنَا لَنَغْرسُ حتى يأكلُ الناسُ بَعْدَنَا

وأبعد فلاَّح عن الرشد والفَلاَح ، من يتسلم المعمور ويتركه وهو بور .

فأعجب أنوشروان وفور عقل الشيخ الفان ، وحسن خطابه وسرعة جوابه ، فقال : زه ؛ يعنى أحسنت ، وهى كلمة تحسين ، ولفظة إعجاب وتزيين ، وكانت علامة للإحسان إذا تلفظ بها السلطان ، يعطى المقول فى حقه أربعة آلاف درهم لرفقه ، فأعطوا الشيخ الهم[2] ، أربعة آلاف درهم .

فقال : أيها السلطان إن الغراس يثمر بعد زمان ، وإن غراسى لحسن طاعته أثمر من ساعته ، فقال : زه ، فأعطوه أربعة آلاف أخرى ، ورفعوا منزلته قدرا .

فقال : وأعجب من هاتين القضيتين أن الغراس يثمر مرة وأنا غراسى يثمر مرتين ، فقال : زه ، فأعطوه القدر المعلوم ، وزادوه فى التكريم والتعظيم والتفخيم .

وقال له أنوشروان : إن أمهلك الزمان حتى تأتينى بباكورة هذا البستان فأنا أقطعك خراجه وأقضى مالك من حاجة ، فامهله الدهر وطال به العمر ، وأدرك ما نصبه ولم يخيب الله تعبه ، فحمل إلى الملك الباكورة ووفى له الملك نذوره .

---

(١) العبالة : ضخامة اللحم واكتنازه .

(٢) العليل .

وإنما أوردت هذا المثل ؛ ليعلم مولانا الملك الأجل أن الدنيا وإن كانت ظلا زائلا وحائطا مائلا ، فهى مزرعة للآخرة وإن الآخرة هى الدار الفاخرة، وأن الله تعالى وجل جلالا ، ولاك هذه المزرعة ، وعلق بالأوامر العلية ما بها من مضرة ومنفعة ، وحكمك فى البلاد وملكك رقاب العباد ، فإياك أن تغفل عن عمارتها بالزراعة ، أو تسلم زمام تدبيرها إلى يد الإضاعة ، فإنك منقول منها ومسئول عنها ، وإن مصالح عساكرك بها منوطة ، وأحوال ملكك بالعساكر مربوطة ، فكلما تعمرت الضياع والقرى ، ترفهت الأجناد والأمرا ، واستراحت الرعية واستمرت مناظم الملك مرعية ، وتوفرت الخزائن واطمأن الظاعن والساكن ، وقلت المظالم وكفت أكف الظالم ، وملاك هذا كله العدل والاستوا ، ومجانبة الأغراض الفاسدة والهوى ، وهذا الذى يقتضيه مقامك ويتم به مرامك ، فإن الملك إنما هو ملك بالأجناد فلا بد له من عمارة البلاد ، والنظر فى مصالح العباد ، لينتظم بنظره مصالح العالمين ، ويستقيم أمر العالم إلى الحين الذى قدره أحكم الحاكمين ، فإن سنة الله جرت على هذا السنن ، وما رآه المؤمنون حسنا فهو عند الله حسن . ولهذا قال سيد سكان الخيف[1] : «أنا نبى السيف»[2] . والجهاد فرض عين على الملوك لا على الفقير والصعلوك ، فالملوك فى نوع من السيادة ، تقتضى من المال ازدياده ليقيموا من الإسلام عماده ، ويقتفوا من الشرع مراده ، ويقصموا الكفر وعناده ويبيدوا أهله وأولاده ، وينهبوا طرافه وتلاده ، ويوطئوا سنابك الإيمان بلاده .

وواجب على كل حاكم أن يبذل فى ذلك اجتهاده ، ويجعل الجهاد إلى الآخرة زاده وعتاده ، ويصون عن الكفر بلاد الإسلام وعباده إلى يوم يلقى

---

(١) الخيف : ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء . ومنه سمى مسجد الخيف من منى ، وهو وادى بطحاء مكة نزله رسول الله ﷺ . معجم البلدان (٤١٥٨) .

(٢) ذكره المتقى الهندى فى كنز العمال (٣٢٠٨٦) بنحوه ، وعزاه للحكيم من طريق حذيفة رضي الله عنه بلفظ «أنا نبى التوبة ، وأنا نبى الملحمة» .

معاده ، فيجازيه الله الحسنى وزيادة هذه طريقة الملوك ومن تبعهم فى الاقتداء والسلوك ، وإياك أيها الملك العظيم وصاحب الملك الجسيم ، وأخذ المال من غير حله ، ووضعه فى غير محله ، ولو كان موضع الخير وقصد به نفع الغير ، فإنه لا يفى ذاك بذا ولا يقوم نفعه بما فيه من أذى ، فذلك كإنشاء المغارس وبنيان المدارس ، وتنوير المساجد وتعمير المعابد ، وسد الثغور ، وعمارة القبور ، وإقامة القناطر والجسور ، وعمل مصالح الجمهور، وإطعام الطعام وكفالة الأيتام ، والحج إلى بيت الله الحرام وإعطاء السائل ، وإغناء الأرامل وصرف النفقات ، وإخراج الزكوات والصدقات ، ومثله الوبيل كما قيل :

بَنَى مَسْجِدَ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ فَصَارَ بِحَمْدِ اللَّهِ غَيْرَ مُوَفَّقِ

كَمُطْعِمَةِ الأَيْتَامِ مِنْ كَدِّ فَرْجِهَا لكِ الوَيْلُ لا تَزْنِى ولا تَتَصَدَّقِى

قال من لم يخف عليه أخفاؤها ﴿**لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا**﴾ [الحج:٣٧] . ثم أخبر بخبر ما يصدر عنكم فقال ﴿**وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ**﴾ [الحج:٣٧] . فإن طلب من هذا أجر فهو خسران وكفر ؛ لأنه فى صورة الاستهزاء ، وهل يطلب بقبيح الحرام حسن الجزاء ، بل الواجب فى هذا على كل من آذى رد المظالم ، وخلاص ذمة الظالم ورجع الحقوق إلى أهلها وإيصالها إلى محلها ، أما يرضى ظالم غوى وتحمل الحرام هوى ، أن يتخلص سواء بسوا ، وشر الناس يا ذا الباس من اتبع قضية إياس ، فسأل العقاب عن بيان هذا الخطاب .

[٨٥] **فقال** : كان فى الشام شخص من اللئام ، تصدى لفصل الأحكام ومشى من الظلم فى ظلام ، وشرع فى أخذ الأموال على سبيل التعدى والوبال ، فكان إذا أخذ من أحد ألفا ادخر لنفسه من ذلك نصفا ، وتصدق بالخمسمائة الأخرى ، على أولى الضرر والضر كل واحد درهما ، وعد ذلك مغنما ، وقال : هذه فائدة علينا بالربح عائدة ، الحسنات خمسمائة والسيئة واحدة ، وواحد يدعو علينا ، وخمسمائة يتوجهون بالثناء والدعاء إلينا ،

ثم قال : ذلك الجاحد ولا تعجز الخمسمائة عن الواحد ، هذا وإن كان والعياذ بالله صرف ذلك الحرام فى الفسق والملاه ، ونيل الأغراض الفاسدة وإقامة الجاه ، فهو أشد فى النكال وأعظم فى الوزر والوبال ، وهذا المقام يطول فيه الكلام وأقل ما فى الباب أن الحلال حساب والحرام عقاب.

وقد سمعت يا جليل القدر ما نطق به السيد الصدر ، الذى أخجل نور طلعته الشمس والبدر ، سيد الأنام ومصباح الظلام ، وحبيب الملك العلام ، عليه أفضل الصلاة والسلام يوما لأصحابه السادة الكرام ، رضى الله عنهم وأرضاهم ، وجمعنا فى مستقر رحمته وإياهم : «أتدرون من المفلس قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى ، وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ؛ فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ؛ أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار»[1] . وهذا إذا كانت هذه الطاعات من الصلاة والصوم والزكاة ، واقعة فى محلها ومصاريفها فى حلها ، فإنها لا تفيد الظالم إلا فى وفاء المظالم ، وأما إذا كانت من الحرام ومنشأ غراسها من مياه الآثام ، فهى وبال على وبال وثبور فوق نكال ، ووهن على كسر ، ونقصان فوق خسر .

وقال أيضا أفاض الله عليه سحائب صلواته فيضا : «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»[2] . فاستعذ بالله

---

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم : كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم (٢٥٨١) من طريق أبى هريرة ﷺ ، والترمذى : كتاب صفة القيامة ، باب ما جاء فى شأن الحرب (٢٤٢٠) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى : كتاب صفة القيامة ، باب ما جاء فى شأن الحساب والقصاص (٢٤٢٠) من طريق أبى هريرة ﷺ ، وقال هذا حديث حسن صحيح .

يا مولى الطير ومولى الخير ، من نار هذا الشرر أن تتفرق طاعتك شذر مذر[1] ، وأعيذك يا سلطان الصافات وما اكتسبته من الطاعات والخيرات ، أن ينقل إلى ديوان غيرك ، أو يفوز بخيرك سوى طيرك ، اللهم إلا أن يكون يا ذا الوقار والسكون ، على وجه ما قال من أحسن المقال :

وَيكْتَسِبُ الطاعاتِ ذُخْرَ العُلما ... يجودُ بها يومَ القِيامَةِ على العاصِي

أو على وجه ما قيل وأحسن به من وجه جميل :

يجودُ بما ضَنَّ الجَوادُ بمِثلِه ... من الوَفْر بل لو أمْكَنَتْه شَمَائِلُه
لعَاد عَلى المَرْضَى بصِحَّة جسْمِه ... وجادَ على المَوتَى بعمر يُطَاوِلُه
وَمنْ على النّوكَى بوافِر عَقْلِه ... وقَسَّمَ فى الحمقى من الرأى كامِلَه[2]
وَثَّقل ميزانُ المُخِفِّ بأجْرِه ... لَدى الوَزْن لما آد بالوزر كاهلُه[3]
وَلوْ لَمْ يَكُنْ فى كَفِّه غيرُ نفسه ... لجادَ بها فليتق اللهَ سائِلُه

ولأجل هذا الخطر العظيم والخطب الجسيم ؛ تورع عن الحلال الزاهدون ، وشمر عن التلوث بالدنيا ذيل الرغبة العابدون ، قال سيد البشر والشفيع المشفع فى المحشر «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء»[4] . وقال عليه الصلاة والسلام والتحية والإكرام، «اللهم ارزق آل محمد قوتا»[5] .

---

(١) شذر مذر : أى تفرق متشتتاً فى كل اتجاه ولم يبق له أثر .

(٢) النوكى : الحمقى .

(٣) آد : أى ثقل عليه الحِمْلُ .

(٤) الحديث أخرجه الترمذى : كتاب الزهد ، باب ما جاء فى هوان الدنيا على الله عز وجل (٢٣٢٠) من طريق سهل بن سعد رضي الله عنه ، وقال : هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه .

(٥) الحديث أخرجه الترمذى : كتاب الزهد ، باب ما جاء فى معيشة النبى ﷺ وأهله (٢٣٦١) من طريق أبى هريرة رضي الله عنه ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

ومع هذا كله فالملك والرعية أمانة ومن تقلد ذلك فقد أوجب على نفسه ضمانه ، فليتجنب خيانته ولا يشين بها أمانته ، قال صفوة الله تعالى ، وخيرته من بريته : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[(١)] . ومصداقه قول رب العالمين وملك الملوك والسلاطين ، وهو أصدق القائلين ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [الأحزاب:٧٢] .

فاعلم يا ملكا أعطى الزمان أمانه ؛ أن هذا الملك الذى بيدك هو من جملة الأمانة ، التى أشفق السموات والأرض والجبال وأبين أن يحملنها خوفا من النكال والوبال ، وخشية أن لا يفين بحقوق حملها ، أو يضعنها فى غير محلها فيعاقبن ، أو بالعتاب يخاطبن فتعففن عن الرغبة فى الثواب ، خوفا من العتاب والعقاب ، وعملن بموجب ما قيل :

هَجَرْتك لا قلى مِنِّى ولكن ... رأيتُ بقاءَ وُدِّك فى الصدودِ[(٢)]
كَهَجْرِ الحائِمَاتِ الوِرْدَ لَمَّا ... رأتْ أنَّ المنيةَ فى الورودِ
تَفِيضُ نُفُوسها ظمأً وتخشى ... حماما فهى تنظرُ مِنْ بَعيدِ
تَصُدُّ بوجه ذى البَغْضاء عَنْه ... وتَرْمُقُه بألْحَاظِ الودودِ

ثم حمل هذه الأمانة بنو آدم لما قدره وقضاه العلى الأعظم فى سابق القدم ، ولما فيها من أحكام وحكَم ، وأن الصادق المصدوق أخبر ، فيما روى عنه أبو ذر قال : قلت يا رسول الله ألا تستعملنى قال : فضرب بيده على منكبى ثم قال : «يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامه إلا مَنْ أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها»[(٣)] . فمن جملتها الصلاة ، والصوم والزكاة ، والوضوء والاغتسال ، ومراقبة ذى الجلال فى السر والإعلان ، بقدر الطاقة والإمكان ، وعلى هذا جميع الطاعات وأنواع

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى : كتاب النكاح ، باب «قوا أنفسكم وأهليكم ناراً» . (٥١٨٨) من طريق عبد الله بن عمر رضي الله عنه .

(٢) قلى : بغض . الصدود : مفرد الصد : وهو الإفتراق والهجر .

(٣) الحديث أخرجه الإمام مسلم : كتاب الإمارة ، باب كراهية الإمارة بغير ضرورة (١٨٢٥) من طريق أبى ذر رضي الله عنه .

العبادات هى فى رقاب العباد أمانات ، ومن أعظمها وأهمها وأحكمها ؛ الإمرة، والحكومة ، والتصدى لفصل الخصومة ، والسلطنة العلية ، وأمور الملك البهية ، والقيام بأمور الرعية .

فيجب على السادة الحكام ومالكى أَزِمَّةِ الأنام ، أن يراقبوا الله تعالى فى كيفية أدائها ، ويطالبوا أنفسهم على ممر الأنفاس بالقيام بوفائها ، ويراعوا أوامر سلطان السلاطين فى أمور عبيده المستضعفين خصوصا المظلوم والفقير ، والضعيف والمسكين ، فإذا عاملوا عباد الله بالعدل عاملهم الله عز وجل بالفضل ، قال الله المنان فى محكم القرآن ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ**﴾ [النحل:٩٠] . وقال السيد الكامل والسند الفاضل أشرف الأواخر والأوائل ، صلى الله عليه صلاة تفنى البواكر والأصائل[١] : ((سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل))[٢] . بدأ فى هذا الفصل من ذكر الصفات بالعدل ، والعدل يا ذا الوجه الخير الوسط ، والوسط هو الخير .

قال من أمره قهر وسطا ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُواْ شُهَدَاءَ**﴾ [البقرة:١٤٣] . أى للأنبياء تشهدون لهم على أممهم لعدالة فيكم ﴿**وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً**﴾ [البقرة:١٤٣] . أى يزكيكم ، أى وكما جعلنا نبيكم إمام القبلتين حائز الفضيلتين ، جعلناكم حائزين خصلتين بالغين مرتبتين؛ وهما كونكم عدولا شهداء على الناس للأنبياء ، مقبولى الشهادة فى الأداء ، وكون الرسول معدلكم وبتزكيته على الأمم مفضلكم ، وقال صلى الله عليه وسلم ، وشرف وكرم ، وفخم وعظم : ((عدل السلطان يوما بعدل عبادة سبعين سنة))[٣] . وقال عليه الصلاة والسلام والتحية والإكرام ((والذى نفس محمد بيده أنه ليرفع للسلطان العادل إلى السماء ، مثل عمل جملة الرعية)) .

---

(١) البواكر : مفرد البكرة وهى أول النهار والأصائل : مفرد الأصيل وهو آخره .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى : كتاب الزهد ، باب ما جاء فى الحب فى الله (٢٣٩١) من طريق أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) الحديث :ذكره المتقى الهندى فى كنز العمال (١٤٦٢٤) وعزاه للطبرانى فى الكبير، والبيهقى من طريق ابن عباس رضي الله عنه بلفظ ((يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة))

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أنه عليه السلام قال : «ثلاثة لا ترد دعوتهم؛ الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم»[1] .

وروى كثير بن مرة رضي الله عنه قال ، قال عليه الصلاة والسلام : «السلطان ظل الله فى الأرض ؛ يأوى إليه كل مظلوم من عباده ، فإذا عدل كان له الأجر وعلى الرعية الشكر ، وإذا جار كان عليه الإثم وعلى الرعية الصبر»[2] .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه يرفعه «لعمل الإمام العادل فى رعيته يوما أفضل من عبادة العابد فى أهله مائة سنة أو خمسين سنة»[3] . وقال قيس بن سعد ستين سنة .

واعلم أيها الملك الأعظم واسلم ، أن العدل ميزان الله تعالى فى الأرض ؛ به ينتصف بعض الرعية من البعض ، وبه يؤخذ للضعيف من القوى ويعبد الله على الصراط السوى، ويتميز الحق من الباطل ، والحالى من العاطل ، وهو من صفات الذات وأعظم الصفات ؛ بمعنى أن الله تعالى عز وجل جلالا له أن يفعل فى ملكه ما يشاء فيؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، ويحكم ما يريد والخلق كلهم له عبيد ، وجميعهم بعض ملكه نافذ فيهم سهم أمر ملكه ، فلا اعتراض على فعل المالك ، ولا فيما يسلك بمملوكه من المسالك ، ولا مجال لاعتراض عبده على ذلك ؛ لاسيما إذا كان مولاه كريما وفى أفعاله مدبرا حكيما ، فمن عرف أن الله عدل وأن أفعاله جارية بين العدل والفضل ، يتلقى نقمه بالصبر ،

---

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذى : كتاب الدعوات ، باب فى العفو والعافية (٣٥٩٨) من طريق أبى هريرة رضي الله عنه ، وقال : هذا حديث حسن .

(٢) الحديث : أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٩٦/٥) من طريق ابن عمر رضي الله عنه ، وقال : رواه البزار وفيه سعيد بن سنان أبو مهدى وهو متروك . وذكره المتقى الهندى فى كنز العمال (١٤٥٨١) وعزاه للبزار عن ابن عمر .

(٣) تقدم فى الذى قبله .

ويقابل نعمه بالشكر ويطمئن خاطره ، وتسكن إلى مولاه سرائره ، فلا يستقبح موجودا ولا يستهجن مفقودا ، ولا يستثقل حكما ، ولا يرى فى الكون ظلما ، بل يستقبل الأحكام بالرضا ويستسلم لموارد القضا ، ويقابل العوارض بما قاله ابن الفارض[1] :

وكلُّ أذىً فى الحبِّ مِنْكَ إذا بَدَا جعلتُ له شُكْرى مكان شَكِيَّتى

وأعدل المخلوقات وأوسط الكائنات الأنبياء عليهم السلام ، فإنهم أعدل الخلق مزاجا وطبيعة ، وأقوم الناس منهاجا وشريعة ، وأوسط البشر أفعالا ، وأقسطهم أعمالا وأقوالا ، وإنما يعترض على أقوالهم ويتعرض لأفعالهم من هو عن الصواب منحرف ، وعن جادة الحق منصرف ، ومن عين بصيرته عمياء عن مراقبة التحقيق ، كالأعمى الذى خرج وهو ماش عن سواء الطريق ، فيعثر فى شوك أو حجر أو يصدمه حيوان أو شجر ، فيقول : نحوا هذا عن الطريق ؛ فإنه يحصل للمارة تعويق ، ويعيب على واضعه وإنما العيب فى طبائعه ، والجهل منسوب إليه لعمى قلبه وعينيه ، كما قال ذو الخويصرة لسيد الرسل البررة لما قسم الغنيمة قسمة مستقيمة : أعدل فأجابه الكامل المكمل بأنه : «إن لم يعدل فمن يعدل»[2] . وإنه أى ذا الخويصرة الذى أعمى الله بصره خاب وخسر ، ولاقى اليوم العسر إن لم يعدل ذلك المفضل ، وكيف يقال هذا الكلام لمثله عليه الصلاة والسلام ، وقد أمره الله تعالى بالعدل، ونشر سر هذا النقل وأقر عينكم ، بقوله ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى:١٥] .

---

(١) ابن الفارض : عمر بن على الفارض ، من كبار المتصوفة وأعلامهم . وهو أيضاً شاعر عظيم له ديوان ؛ أشهر ما فيه التائية فى نظم السلوك ، وهو مصرى عاش فيها زاهداً متنسكاً طوال عمره . ومات ودفن بها . سير أعلام النبلاء (٥٧٠٢) .

(٢) جزء من حديث أخرجه البخارى : كتاب المناقب ، باب علامات النبوة فى الإسلام (٣٦١٠) من طريق أبى سعيد الخدرى بلفظ «ومن يعدل إذا لم أعدل» الحديث .

قال الأسد الغالب على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وجعل إلى رضوانه له أحسن وجهه : إمام عادل خير من مطر وابل(١) ، وأسد حطوم خير من سلطان ظلوم .

وقيل : الملك يدوم مع العدل ولو كان الملك كافرا ، ولا يدوم مع الظلم ولو كان الملك مسلما ، وما تعاطى حاكم ذو فضل فصل قضية فى فصل ، أحسن من سلوك طريقة العدل ، ولذا بقى اسم أنوشروان مخلدا بالعدل على مر الزمان وإلى يوم ينصب الميزان مع أنه كان مجوسيا يعبد النيران ؛ والسنة التى اخترعها بالسلسلة التى وضعها باقية فى ممالك الصين ، معمول بها إلى آخر حين .

[٨٦] **وقيل** : إن أنوشروان كان شديد الوداد للاصطياد وكان يعشق البازى والزَّرُّوق(٢) ، والصقر والباشق والبيدق(٣) ، فسأل يوما من البازدار لما كانت هذه الأطيار قصار الأعمار؟ قال : لأنها تظلم الطيور ، والظالم عمره قصير ، فتنبه بهذه الكلمة واتعظ وكف يده عن الظلم واحتفظ ، ثم أسس قواعد العدل فانتشر ذكره إلى يوم الفصل ، ويكفيه من الفضائل قول السيد الكامل «ولدت فى زمن الملك العادل»(٤) .

[٨٧] **وروى** : أن بعض الملوك العادلين والحكام الفاضلين ؛ استولى عليه الكبر ووقر فى أذنه وَقْر وقر وكان قبل الصمم فى العدل والكرم كما قيل :

وأَنَّــةُ مظلــوم وغُنَّــةُ سائــل على أُذْنِه أحلى من الشَّهْـدِ فى الفَم

---

(١) مطر وابل : الشديد الضخم القطر .
(٢) البازى : طير من الجوارح يصاد به وهو أنواع كثيرة . الزروق : طائر صياد شبيه بالصقر والباشق .
(٣) الباشق : طائر من أصغر الجوارح . البيدق : طائر من الجوارح فى حجم الباشق .
(٤) الحديث تقدم من قبل .

فحزن لفقد سمعه وتأسف وتحرق وتلهف وتأرق وبكى ، وتأوه واشتكى، وقال : ما أتلهف من عدم سماع الحديث إلا على فقدى صوت المستغيث ، ولا كنت أتلذذ من متكلم إلا بالإصغاء إلى خطاب المتظلم ، ثم قال : ولئن حرمت ذلك من طريق الأخبار فلأتوصلن إليه من طريق الأبصار، ثم أمر بإشهار النداء فى الأطراف والأرجاء أنه من كانت له ظلامة فليظهر له علامة ، وهى أن يلبس ثوبا أحمر ويقف فوق ذلك التل الأخضر ، لنعرف علامته ونكشف ظلامته .

[٨٨] **وقيل** : إن السلطان السعيد ، نور الدين الشهيد[١] ؛ لما أمر ببناء دار العدل ، وعزم أن يقيم فيها للحكومات الفصل ، أدرك الأمير الكبير صاحب الرأى المنير أسد الدين شيركوه[٢] ، ما يعتمده السلطان ويرجوه ، وما يحمله على ذلك ويدعوه ، وعلم أن ذلك الأسد لا يسامح عنده أحد ، وأنه لا يراعى فى الحق أميرا ولا كبيرا ولا صغيرا ، فإنه مع الحق وبالحق قائم لا تأخذه فى الله لومة لائم ، فجمع مباشرى ديوانه ، وأكد ما قاله لهم بأيمانه لئن شكا منهم أحد ، أو بلغه عن أحد من حاشيته ظلم أو نكد ليذيقنه أشد العذاب ، ولينزلن به أنكى عقاب ، وقال ما برز هذا الأمر العزيز الغالى ، ببناء هذا المقعد العام العالى ، إلا لأجلى ولأجل أمثالى فما وسعهم إلا طلب الخصوم ، واسترضاء العادل والمظلوم .

---

(١) نور الدين الشهيد ؛ ابن عماد الدين زنكى ، حكم الشام ومصر وحارب الصليبيين وانتزع منهم إمارتى الرها وبانياس عام ١١٦٤م ، وشيد العديد من الحصون والمساجد . توفى سنة (٥٦٩هـ) بدمشق سير أعلام النبلاء (٥١٥٧) .

(٢) أسد الدين شيركوه ؛ هو عم صلاح الدين الأيوبى ، خدم نور الدين زنكى وكان وزيراً للعاضد الفاطمى ؛ آخر خلفاء الدولة العبيدية . وحارب الصليبيين وحقق انتصاراً عليهم فى موقعة تل بسطة توفى (٥٦٤هـ) سير أعلام النبلاء (٥١٨٦) .

[٨٩] وروى : أن أحد الصدور غصبه بعض عمال المنصور[١] ، وأخذ منه كفرا من الكفور ، فتوجه إلى الخليفة وضرب له أمثالا طريفة ، وقال : أصلح الله أمير المؤمنين ، وأقام به شعائر الدين ، ونصر به المظلومين على الظالمين ، أأذكر ظلامتى أولا ، أم أضرب أمام حاجتى مثلا. فقال : دع الجدل واضرب المثل .

فقال : ألهمك الله العدل وأقام بك قواعد الفضل ، إن الطفل إذا نابه ما يكرهه ، أو قرعه خطب يجبهه ، فر إلى أمه وأجهش إليها من همه ، فأوى إلى حضنها واندس تحت بطنها ، لأنه لا يعرف سواها فيستكشف بها عن نفسه ما دهاها ، ولا يظن أن غيرها يدفع عن نفسه ضيرها ، فإذا عرف أباه بث إليه شكواه ، واستدفع به ما عراه ، لأنه قد وقر فى وهمه أن أباه أقوى من أمه ، وأن غيره من الناس لا يقدر على دفع الباس ، فيلجأ إليه فيترامى فى دفع شدائده عليه ، ولا يقبل عذره إن ترك نصره أو قصر فى مبتغاه ، أو تهاون فى متمناه ، ولهذا قال بدرُ الحى : إن النساء والصبيان يظنون أن الرجل يقدر على كل شىء ، فإذا اشتد واستوى وأصابه من أحد جوى ، تقدم إلى الوالى ؛ لأن مقامه عالى وهو أقوى من أبيه ، فيستكشف به ما وقع فيه ، فإذا صار رجلا وأصابه من أحد نكد وبلا ، استنجد بنائب السلطان فوجده له أحسن معوان ، فأشكاه ورفع بلواه ، وكفاه إذ دعاه من عداه ما دهاه ، ورعاه عما عراه ، فإنه أقوى من الوالي ، وأقدر على دفع الظلامة من كل منهمك غالى ، وهو السلطان الحاضر والعامل والناظر على البادى والحاضر ، فإذا ظلمه الوالى والعامل ونقصه حقه ذو الحكم الكامل ، تعلق بأذيال عدل السلطان ، واستكشف بمراحم نصرته ما دهاه من عدوان ، إذ قد تحقق ورأى

(١) المنصور ؛ هو الخليفة المنصور أبو جعفر عبد الله المنصور ثانى خلفاء العباسيين ؛ بنى مدينة بغداد ودعاها مدينة السلام وجعلها عاصمته . ومات سنة (١٥٨هـ) سير أعلام النبلاء (١٠٢٥) .

وصدق أنه أقوى من الكل و إلى مرسومه مرجع الجل والقل ، ولا يد فوق يده ، وأنه قد انتهى حديث رفعته لعلو سنده ، وبلغ فى التسلط ونفوذ الأمر إلى أقصى أمده ، إذ هو ظل الله فى أرضه ، وخليفته فى إقامة نفله وإحياء فرضه ، وقابض أزمة المخلوقين ، ومنصف المظلومين من الظالمين .

فإذا لم ينصفه السلطان مع القدرة الكاملة والإمكان ، توجه بشكواه إلى سلطان السلاطين ، وطلب رفع ظلامته من رب العالمين ، لعلمه أنه الحكم الذى لا يجور ، والحكيم الذى بيده مقاليد الأمور ، والحاكم الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وأنه أقوى من السلطان ، ولا يحتاج فى الشكوى إلى بينة ولا بيان ، ولا إلى دليل ولا برهان .

وقد نزلت بى حادثة للقلب كارثة ، وبالفكر عابثة ، وللسر عائثة ، وهى أن العامل الفلانى ظلمنى وأخذ مكانى ، فأنا أشكوه اليك وقد ترامیت عليك ، وعرضت قصتى بين يديك ، لأنك نعم السند وليس فوقك أحد ، ولا فى الحكام إلا من هو لك بمنزلة الغلام ، وما بعدك إلا الله مولى لا يخيب من رجاه ، ويجيب المضطر إذا دعاه ، فإن وعيت قصتى وكشفت غصتى و إلا رفعتها إلى الله ، وقطعت النظر عما سواه ، وهذا أوان الموسم وإعمال المنسم[1] ، وأنا متوجه إلى حرمه ومترام على باب إحسانه وكرمه .

فلما وعى المنصور خطابه أرسل من سحاب جفنه عبابه[2] ، وقال : حبا وكرامة يا ذا الزعامة ، بل أنصفك وبالفضل أسعفك ، وأضعف كرامتك وأكشف ظلامتك ، وأوصلك حقك وأعطيك مستحقك ، وأمر فكتب إلى واليه يضع من معاليه ، ويأمره برد أراضيه ، وطلب مراضيه ، والتحلل من ظلم أياديه ، وإكرام محله وناديه .

---

(١) المنسم : هو التوجه إلى وجهة معينة أى يريد التوجه إلى بيت الله الحرام أثناء موسم الحج .

(٢) العباب : السيل . أى دمع كثير .

[٩٠] وروى : أن موسى الكليم عليه الصلاة والتسليم ، فى بعض مناجاته وسؤاله حاجاته سأل الله من فضله أن يريه نكتة من عدله ، فأمره أن يتوجه إلى مكان ويختفى فيه عن العيان ، فامتثل لما به أمر واختفى فى ذلك المكان ، على شط نهر فما كان بأسرع من قدوم إنسان إلى ذلك المكان ، فبمجرد ما وصل إليه نزع من ملبوسه ما عليه ، وكان معه كيس فيه مال نفيس ، فأودعه ثيابه ورام فى الماء انسيابه ، فدخل فى ذلك النهر وغلغل فيه إلى أن غاب عن النظر .

فاقبل فارس فوجد ثيابا بلا حارس ، فنزل عن الدابة وفتش ثيابه ، وأخذ كيس الذهب وركب فرسه وذهب ، وأسرع فى الذهاب إلى أن زال شخصه وغاب ، ثم أقبل شخص ذو شجب وعلى ظهره حزمة حطب ، فانتهى إلى الماء وقد برح به الظما وأمضه التعب ، وأخذ منه النصب ، فطرح عن ظهره الحطب ، وقصد الراحة وقد ظهر الذى كان فى السباحة ، فوجد عند ثيابه شخصا من أترابه ، فاستأنس به وتأوه لمكتئبه وما يقاسيه من نصبه ، ثم اشتمل ملبوسه وتفقد كيسه ، فما وجده ، فعض يده ، فسأل الحطاب عما كان فى الثياب ، وطلب منه الكيس بالتعبيس[١] ، فقال : ما رأيته ولا حويته ، فقال : هل كان معك أحد ، فقال : لا ، والواحد الأحد ، قال : فهل كان هناك سواك ، قال : لا ، والذى سواك ، قال : يا أخى أنا وضعت الهميان[٢] بيدى فى هذا المكان ، ولم يطل على ذلك زمان ، ولا حضر سواك حيوان ، ولا طمث عذراء هذا الموضع إنس ولا جان ، فلا أشك أنك أخذته ، ولنفسك افتلذته .

فأقسم بعالم الخفيات وكاشف البليات ، المطلع على الضمائر والنيات ،

---

(١) التعبيس : الكلح والغضب .

(٢) الهميان : كلمة فارسية وهى كيس تجعل فيه النفقة ويشد على الوسط .

أنه ما رأى له هميانا ، ولا يعرف لذلك مكانا ، فقال : لو شهد لك الكون والمكان ونطق ببراءتك جوامد الزمان ، وزكاهم الكرام الكاتبون ، لما شككت أنهم كاذبون ؛ لأن إنكار المحسوس مكابرة ، والمثابرة على الباطل للحق مدابرة ، ولكن خذ لك منه يا فقير الثلث والثلث كثيرٌ ، واردد عليَّ الثلثين وإن أبيت فاجعله بيني وبينك نصفين ، فما زاد ذلك على اليمين وما شك هذا أنه يمين . فقال : اردد على ماليَّ ، وإلا قتلتك فلا لك ولا لى ، فقال : ما رأيت مالك فافعل ما بدا لك .

فشرع فى تفتيشه وبالغ فى فحصه وتنبيشه ، فلم يهتد إلى شيء سوى الضلال والغى ، فأخذه الحنق واشتد به الأرق ، وثارت نفسه الأبية واتقدت ثورته الغضبية ، فضربه بمحدد فقتله ، وجد له بالإهلاك فجدله ، ثم تركه وذهب ولم يحظ من الذهب بغير اللهب .

كل هذه الأحوال وموسى عليه السلام يشاهد ما فيها من أفعال وأقوال ، ثم ناجى فقال : يا ذا الجلال أنت عالم بحقائق الأمور ، وسواء عندك البطون والظهور ، سألت فضلك أن تريني عدلك ، فأريتنى هذا المغرم ، وأنت أعلى وأعلم ففى ظاهر ما أمرتنى وبدرامته غمرتنى ، من الشريعة المطهرة ونص التوراة المحررة ، أن هذا الحكم جور وظلم ، فأطلعنى على الحقيقة وبين لى سلوك هذه الطريقة .

فقال الله تعالى وجل جلالا : يا موسى المقتول قتل أبا القاتل ، والقاتل سرق الكيس من أبى الفارس الخاتل . ففى الحقيقة : الفارس النبيه وصل إلى ماله المخلف عن أبيه ، والقاتل إنما استوفى قوده[1] ممن قتل والده ، وهذه الأمور إنما تتضح يوم النشور يوم تبلى السرائر وتكشف الضمائر ، وينادى يوم التناد لا ظلم اليوم إن الله قد حكم بين العباد .

---

(١) القوْد : القصاص .

ونظير هذه القصة ما ذكره الله تعالى وقصه ، فى روض كلامه النضر عن موسى والخضر ، عليهما السلام والتحية والإكرام ، إذ ركب السفينة وخرق خرقا مؤديا إلى الغرق ، وقتل النفس الزاكية ، وأقام بغير أجر أركان الجدار الواهية ، وبعض ذلك مخالف لظاهر الشريعة تنفر عنه النفس السليمة والطبيعة ، ولكنه موافق للحكمة الإلهية ومقتضيات العقل الحقية ، الذى لا يطلع عليه إلا عالم الأسرار الخفية ، ولهذا قال جل واحدا أحدا وتعالى فردا صمدا : ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾ [الجن:٢٦]. ثم استثنى من هذا المقول إلا من ارتضى من رسول ، وإنما الشريعة الزاهرة وردت بما تقتضى من الحكم الظاهرة ، فتعبدنا الله فى الشرائع بظاهر ما يثبت فى الوقائع .

قيل : من أيقن بحقية أربعة كان من ضيق أربعة فى سعة ، وأمن ودعة : من أيقن أن الصانع الضار النافع لم يخطئ ولم يغلط ؛ أمن من العيب والشطط .

ومن أيقن أن الخلاق ، ومقسم الأرزاق لم يحف فى خلقه ، ولم يمل فى رزقه ؛ أمن الحسد واستراح من النكد .

ومن أيقن بوقوع المقدور ، وأنه لا ينجيه منه محذور ؛ أمن الغم ولم يتسلط عليه الهم ، كما قيل :

ما قَدْ قُضِيَ يا نَفْسُ فاصطَبِرِى لَهُ ولكِ الأمانُ من الَّذِى لم يَقْدُرُ

وقيل : ومن عرف أصله أمن من الكبر نصله .

[٩١] وروى : أنه كتب فى قضية إلى أعدل خلفاء بنى أمية[1] ، من

---

(١) عمر بن عبد العزيز ؛ ابن مروان ، خامس الخلفاء الراشدين ، وهو الخليفة العادل حفيد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، كان زاهداً وعالماً فقيهاً عابداً ورعاً شاع بين الناس العدل والأمان . وكان ليّن سمح الخلق . مات سنة (١٠١هـ) سير أعلام النبلاء (٦٧٥) .

عامله بحمص[1] ، أنه هدم الدمص[2] وعدم النمص[3] ، وأن رَبَضَها رابض[4] ، ومرعى رياضها بارض[5]، وإنها محتاجة إلى عمارة وزراعة وحراسة ومناعة ، فكتب إليه عمر بن عبد العزيز هذا الجواب المفيد الوجيز، وهو : حصنها بالعدل ، ونق طرقها من الحدل[6] ، يثبت البنا وينبت الكلا والسلام .

وقيل : أمير بلا عدل كغيم بلا مطر ، وعالم بلا ورع كشجر بلا ثمر ، وشاب بلا توبة كمشكاة بلا مصباح ، وغنى بلا سخاء كقفل بلا مفتاح ، وفقير بلا أدب كطابخ بلا حطب ، وامرأة بلا حياء كطعام بلا ملح ، وقاض جائر كملح على جرح .

وقيل : العالم بستان سياجه الشريعة والشريعة سياج يخدمها الملك ، والملك راع يعضده الجيش ، والجيش أعوان يكفلها المال ، والمال رزق تجمعه الرعية ، والرعية أحرار يستعبدها العدل ، والعدل سلك به نظام العالم.

وليعلم أن الملة الأحمدية والشريعة المحمدية هى أعدل الملل وأقوم النحل .

مثلا النصارى : لا يتحامون الحائض أيام أقرائها[7] ، ولا فرق بين الحائض وغيرها من نسائها .

---

(١) حمص : مدينة سورية بين دمشق وحلب ، وهى بلد مشهور قديمة . بها قلعة حصينة. معجم البلدان (٣٩١٤)

(٢) الدمص : هو قلة شعر الرأس . أى أنه قد عم الجدب والقحط .

(٣) النمص : هو ما تأكله الماشية . أى عدم الزرع والمراد : أنه حل البلاء بالبلدة .

(٤) الربض : يقال ربضت الإبل أى بركت عجزاً عن الحركة .

(٥) البارض : هو أول ما تخرج الأرض من نبت .

(٦) الحدل : الظلم .

(٧) أى أيام حيضها .

واليهود : يجتنبونها فلا يؤاكلونها ولا يشاربونها ولا يقربونها رأسا ، ويعدونها رجسا وركسا[1] .

فسلكت الشريعة المحمدية في ذلك أعدل الطرق وأفضل المسالك ، فتعاشر كالأطهار ، وحرم قربان ما تحت الإزار[2] .

وفي بعض الملل على الذى قتل القود والقصاص ، وليس في الدية خلاص وفي بعض الدية لا غير ، وما للقصاص فيها سير . ودين الإسلام المرفوع كل فيه مشروع ، والعدل في الاعتقاد يا ملك البلاد ، ترك التخليط وسلوك ما بين الإفراط والتفريط ، والقول بالتقديس والتنزيه وإثبات الصفات من غير تعطيل ولا تشبيه ، واقتباس النور من جمرين وسلوك أمر بين أمرين، والعدول عن المذهب البغيض ، وهو مذهب الجبر والتفويض[3] والعدل في الفقهيات ، يا معشوق المخدرات والحذاريات[4] الذى قام عليه النص دليلا ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:١١٠] .

---

(١) الركس : الرجس .

(٢) في هذا إشارة إلى حديث أخرجه البخارى : كتاب الحيض ، باب مباشرة الحيض (٢٩٩) من طريق عائشة رضى الله عنها بلفظ كانت إحدانا إذا كانت حائضاً فأراد رسول الله ﷺ أن يباشرها ؛ أمرها أن تأتزر في فور حيضتها ثم يباشرها . قالت : وأيكم يملك إربه كما كان النبى ﷺ يملك إربه ؟ والمراد بالمباشرة هنا : إلتقاء البشرتين لا الجماع .

(٣) مذهب الجبر : نسبة إلى الجبرية وهو مذهب من مذاهب الفتنة ظهر في العصر العباسى . يقول بأن الإنسان مجبور في كل أعماله ولا اختيار له . ومذهب التفويض : هي فرقة فوضت الأمر إلى الله في كل شيء احترازاً من الوقوع في الغلو كالفرق الأخرى .

(٤) الحذاريات : الداهيات . والمراد هنا النساء .

فمن العدل الوضوء المعتاد ثلاث مرات ، ومن نقص أو زاد فقد تعدى وظلم كذا قال النبى المكرم ﷺ ، أى تعدى إن أسرف ، وظلم إن أجحف[1].

والعدل فى الصلاة ؛ أن تكون على مرتضى الشرع ومقتضاه ، وهى أداؤها فى أفضل الأوقات مؤداة مع الجماعات فى الصف الأول على الوجه الأكمل ، عن يمين الإمام من الافتتاح إلى الاختتام مع تعديل الأركان ، بل التعديل فرض عند بعض الأعيان ، لا نقرا كنقر الطير ولا تطويلا يضر بالغير .

والعدل فى الزكاة ؛ أن لا يتيمموا الخبيث منه ينفقون ، ولا يجعلوا لله ما يكرهون ، وليسوا بآخذيه إلا أن يغمضوا فيه ، ولا يكلف جابى المال أن يعطى كرائم الأموال .

والعدل فى الصوم يا سيد القوم ؛ أن لا يتناول فوق الغذاء المعتاد ، ولا يصل بالوصال إلى درجة الإجهاد ، ويعجل الفطور ويؤخر السحور .

والعدل فى الحج ؛ أن لا يمارى فى الإنفاق ، ولا يضارر الرفاق بالشقاق ، كما يفعله أبناء الزمان ، فإن ذلك خسران والازدياد من ذلك نقصان.

ولقد بلغك يا قمر ما قاله عمر لخادمه يرفا وذا لا يخفى ، كم بلغت نفقتنا مقدارا قال : ثمانية عشر دينارا يا أمير المؤمنين ، قال : ويلك اجحفنا بيت مال المسلمين وإياك والأشر[2] وقاك الله كل شر ، فقد بلغك قيمة راحلة

---

(١) جزء من حديث أخرجه أبو داود ، كتاب الطهارة ، باب الوضوء ثلاثاً ثلاثاً (١٣٥) من طريق عمرو بن شعيب بلفظ ((هكذا الوضوء فمن زاد على هذا أو نقص فقد أساء وظلم)) أو ((ظلم وأساء)) .

(٢) الأشر : البطر .

سيد البشر ليدل ذلك على ترك البطر والأشر ، ولا يقصر فى نفقته بحيث يصير كلاً على رفقته ، وكذلك فى كل الإنفاق يا ملك الآفاق قال من عز كلاما وجل مقالا ومقاما ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ [الفرقان:٦٧] .

والعدل فى النكاح يا حبيب الصباح ، لمن عليه يقوى فهو أقرب للتقوى، وهو يا أبا حسان واجب عند التوقان[١] ، سنة عند القدرة عليه ، مستحب عند استواء طرفيه ، مكروه عند العجز عنه وهذا بحث قد فرغ منه.

وقس يا ذا الكرامات على هذا سائر العبادات وجميع العادات ، وعقود المعاملات ، ولا تتعد الحدود فى الحدود فإن ذلك مردود .

وعلى قانون العدل وردت الشريعة المطهرة وجرت قديما شرائع الأنبياء البررة ، وكذلك مقادير الملة المحمدية عليه أفضل صلاة وأزكى تحية، محررة على القواعد العدلية ، وفيها من الحكم الإلهية ما يعجز عن إدراكها القوى العقلية . قال الله تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد:٥] .

وحاصل الأمر يا ذا النهى والأمر : أن العدل هو قوام كل فضيلة ، كما أن الصبر هو أساس كل خصلة جميلة ، وإن أردت بسط هذا البيان ؛ فدونك القول والتبيان فى تفسير القرآن ، المنزل على أشرف إنسان إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، فقد أشبع التقرير ، ودقق التحرير فى روضه النضير ، فارس ميدانه الإمام الخطير فخر الدين الرازى فى تفسيره الكبير[٢] .

---

(١) التوقان : مفرد تاق وهو شدة الشهوة .

(٢) فخر الدين الرازى ؛ الإمام العلامة المفسر صاحب التفسير الكبير للقرآن الكريم ، وهو من أشهر التفاسير (مفاتيح الغيب) كان فيلسوفاً متكلماً واسع المعرفة بطوم النقل والعقل ، وله العديد من المؤلفات بالعربية والفارسية مثل (معالم أصول الدين) ، وغيرها . توفى سنة (٦٠٦هـ) سير أعلام النبلاء (٥٤٥٩) .

والعدل يجرى فى الصفات كما يمشى فى الذوات ، ومرتبته فى العلو أن يكون بين التقصير والغلو ، كالكرم الذى يكون بين الإسراف والتبذير، والشح والتقتير . والتواضع الذى بين الضعة والتكبر ، وبين التصعر والتصغر[1] : والشجاعة التى بين التهور والخفة ، والجبن الطائش الكفة . والقناعة التى بين الحرص والطمع ، والنذالة والهلع ، وبين العجب والتصلف[2]، والاحتشام والتقشف . والإخلاص الذى بين الشرك والهوى، وبين الإعجاب والريا . والعفة التى بين التهافت على المشتبهات والترفع عن تناول المباحات والطيبات . والعزم الذى بين سوء الظن والوهم والوسواس، وبين إذاعة السر والاستخفاف وعدم المبالاة بالناس . والحلم الذى بين الغضب بلا سبب ، وبين التغاضى عن اللئام عند موجب الانتقام . والشفقة ولين الجانب للأقارب والأجانب ؛ الذى بين القوة والاستكبار ، وبين الرخاوة واللين المستلزم لتضييع حقوق الأهل والجار . وحفظ الحقوق الذى بين التكلف والعقوق ، يراعى فيها الحدود ، ولا يخرج فيها عن الحد المعهود ، فالخروج عنها يسمى عنادا وقساوة ، والتقصير فيها يدعى ركاكة ورخاوة .

مثلا : من يستحق العفو لا يضرب ، ومن يستأهل الضرب لا يقطع ولا ينكب[3] ، ومن استوجب القطع لا يقتل ، ومن وجب عليه حد لا يهمل .

وتجرى أمور الشرع الشريف على ما ورد به الأمر المنيف ، فما ثم أحد أكرم من الله ولا أرحم ، ولا أعلم بأمور مخلوقاته ولا أحكم ، قال السميع البصير ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤] .

---

(١) التصعر : التكبر والأبهة . والتصغر : الذل والهون .

(٢) التصلف : التملق .

(٣) أى يقتل .

[٩٢] وروى : أن الإمام المسدد جعفر بن محمد ، دخل على الرشيد[١] وهو فى أمر شديد ، قد استولى عليه الغضب واستخفه الطيش والصخب ، فقال : يا أمير المؤمنين إن كان غضبك لرب العالمين فلا تغضب له أكثر من غضبه لنفسه ، وقد حد لكل شىء حدا من نقمه وبأسه ، فلا تتعد حدوده ، فإنه قد ملكك عبيده فتذكر من وقوفهم بين يديك ، واقتدارك عليهم إذا تمثلوا قياما لديك ، قدومك يوم القيامة عليه ووقوفك خاضعا منفردا بين يديه ، ومن انتقامك منهم سؤاله إياك عنهم ، فسكن من غضبه واقتدى بأدبه .

وقال الحكماء للاسكندر[٢] : عليك بالاعتدال فى كل الأمور ؛ فإن الزيادة عيب ، والنقصان عجز .

وفى الحديث : «خير الأمور أوسطها»[٣] .

ولهذا قيل فى الأقاويل : ينبغى للإنسان الراجح العقل فى الميزان ، أن يحصل من كل علم مقدار ما يحتاج إليه ، ويعول فى مشكلاته عليه . مثلا من علم الأدب ما ينال به عند أربابه الرتب ، كاللغة والنحو والصرف ، ولو أنه أدنى حرف ، ليقوم بذلك لسانه ، ومن علم المعانى ما يبدع به بيانه ، ومن العروض والقوافى المقدار الوافى والمعيار الكافى ، ومن الطب ما يعرف به

(١) الرشيد ؛ هارون الرشيد ، أشهر خلفاء بنى العباس وهو خامسهم ، تولى بعد اغتيال أخيه الهادى ، وهو ابن الخليفة المهدى ، اشتهر بعدله وحبه للأدب والعلم ، وازدهرت الحضارة الإسلامية فى عهده ؛ فبلغت أوج مجدها . ومات سنة (١٩٣هـ) سير أعلام النبلاء (١٤١٤) .

(٢) الإسكندر بن الملك فيليب حكم مقدونيا اليونان قديماً . من أشهر العسكريين الغزاة فى التاريخ ، اجتاح مملكة الفرس ، ودخل مصر وأسس بها مدينة الإسكندرية ، ومات فى مدينة بابل متأثراً بالحمى . البداية والنهاية (٩٧/٢) .

(٣) ذكره العجلونى فى كشف الخفا (٣٩١/١) وفيه قال فى المقاصد : رواه ابن السمعانى فى ذيل تاريخ بغداد لكن بسند فيه مجهول عن على مرفوعا ، والديلمى بلا سند عن ابن عباس مرفوعاً بلفظ الحديث «خير الأعمال أوسطها» . الحديث .

مزاجه ويصلح به علاجه ويقوم به اعوجاجه ، ومن علم التفسير والقرآن ما يقتدر به على بيان كلام الرحمن ، ومن علم السنة والحديث ما يميز به الطيب من الخبيث ، ويضبط به أقسامه وصحته وسقامه ، والأنساب والرجال وما لهم من صفات وأحوال إن لم يكن مفصلا فعلى الإجمال .

ويندرج فيه علم التاريخ العالى الشماريخ ، ومن علم الكلام ما يصحح به دينه ويقيم به اعتقاده ويقينه ، ومن علم الأصول وما اشتمل عليه من معقول ومنقول ، ما يقدر به على استنباط الأحكام ومعرفة أدلة الحلال والحرام ، ومن علم الفروع ما يحكم به أصناف العبادات ، وأنواع العادات ، وطرائق العقود وإقامة الحدود ؛ ومن علم مكارم الأخلاق ما يصيد به قلوب الرفاق ويكتسب به الذكر الجميل والثناء الجليل . ومن الحِرَف ما يحصل به القوت الحلال ولا يصير على الناس كلا ذا إملال .

وقد قيل : خالطوا الناس مخالطة إن غبتم حنوا إليكم ، وإن متم بكوا عليكم ، ومن علم الركوب والرمى والسباحة ، والخط ولعب الرمح والسياحة، وعلم الفرائض والحساب ، وطرائق المبايعات والكتاب ، ما يقدر به على الدخول إليه إذا تكلموا فيه بين يديه ، بحيث يكون له فيه مشاركة وإلمام ولا يكون بين الخواص كالعوام .

وكل ما ذكر فسلوكه عدل ، والتلبس به كمال وفضل ، ورأس مال الجميع التقوى ، فإن الإنسان الضعيف بالتقوى يقوى ، قال الله تعالى ﴿**ولكن يناله التقوى منكم**﴾ [الحج :٣٧] .

وبالجملة : فالعاقل العادل ، بل الكامل الفاضل لا يستنكف عن نوع من العلوم ، ولا تبرد همته عن اقتباس منطوق ومفهوم ، قال معلم الخير ومحذر الشر[1] : تعلموا حتى السحر ، وقال :

---

(١) معلم الخير ومحذر الشر ، أراد الإمام سيدنا على بن أبى طالب رضي الله عنه والبيتان فى نهج البلاغة .

عَرَفْـــتُ الشَّـــــــرَّ لا للشـــرِّ لَكِــــنْ لِتوقِّيْــــهِ
ومَنْ لـــم يَعْـــرفُ الخيــرَ من الشـــرِّ يقـــعُ فيـــه

وكل صافى السريرة وذى بصيرة منيرة ، يتوجه إلى التعلم والاستفادة ويجعل مراده مراده ، أى علم كان خصوصا إذا كان من الشرف بمكان . قال بعض الوزراء لابنه : يا بنى تعلم العلم والأدب ، ولا تسأم فيهما من الطلب ، فلولا العلم والأدب ؛ لكان أبوك فى السوق حمالا وللنوق جمالا ، فبالعلم والأدب ؛ ركبنا أعناق الملوك .

وأحوج الناس يا ذا الأفضال إلى اكتساب الفضل والعلم والكمال السلاطين والملوك ، ومن تبعهم فى السلوك ، فإنهم بين خلق الله تعالى هم المرموقون ، والسابقون بجلائل النعم لا المسبوقون ، وبحفظ بلاده وعباده المستوثقون ، وبالسؤال عنهم موثوقون ، فهم المتحملون لأعباء العدل المكلفون بالمحاسبة عنه والفضل ، قال من يقول للشيء كن فيكون ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩] .

فهم أقدر على التحصيل من غيرهم والزمان والمكان تابعان لسيرهم ، والخاص والعام يتمنى قربهم ، ويسلك فى التوصل إلى جنابهم دربهم ، ويبذل فى ذلك ما وصلت إليه يداه ويجعل تحصيل ما يرومونه غاية متمناه ، فيبذل جهده فى إيصالهم إليه ويكد قلبه وقالبه فى إطلاعهم عليه ، قال الشاعر :

ولَمْ أرَ فى عيوبِ النَّاس نَقْصًا كنقص القادرين على التَّمَام

وقال بعض الملوك لأولاده : يا بنى اكتسبوا العلم والفضل ، وادخروا الحلم والعدل ، فإن احتجتم إلى ذلك كان مالا ، وإن استغنيتم عنه كان جمالا .

وقال بعض الحكماء : العلم ملك ذو أعضاء ؛ رأسه التواضع ودماغه المعرفة ، ولسانه الصدق ، وقلبه حسن النية ، ريداه الرحمة ، ورجلاه مثابرة

العلماء ، وسلطانه العدل ، ومملكته القناعة ، وسيفه الرضا ، وقوسه المساعلة، وسهمه المحبة ، وجيوشه مشاورة الأدباء ، وزينته النجدة ، وحكمه الورع ، وكنزه البر ، وماله العمل الصالح ، ووزيره اصطناع المعروف ، ومستقره جودة الرأى ، ومأواه الموادعة ، ورفيقه مودة الأخيار ، وذخيرته اجتناب الذنوب .

والحاصل يا ملك الطير حبا مالك عنان الخير : أن قوام العالم ونظام بنى آدم سيف الملوك والسلاطين ، وقلم العلماء والأساطين ، فمهما حدث من شر محاه سيف الملوك ، ومهما وجد من خير أثبته قلم علماء الإرشاد والسلوك .

وفى الحقيقة يا شيخ الطريقة : العالم عبارة عن هؤلاء وبصلاحهم تصلح الأشياء ، وبفسادهم والعياذ بالله تفسد الدنيا ، إذ هم لزوال الفساد وطهارة العباد وعمارة البلاد ، بمنزلة الصابون للأوضار[1] ، والاستغفار للأوزار ، فإذا فسد هؤلاء فما لفسادهم دواء كما قيل :

الذنبُ صابونُ الاستغفار يغسلهُ ... كالثوبِ يَنْظُفُ بالصابون إن وَسِخَا
فما الذى يَغْسِلُ الصابونَ من دَنَس ... إذَا رَأَيْتَاهُ صارَ الذَّنْبَ والوسخَا

وناهيك يا ملك العقبان ما فسد من الزمان ، وجرى من الدماء من طوفان ، وانمحى من أمهات البلدان عند استيلاء الكافر جنكزخان[2] ، فسأل العقاب عن كيفية هذا المصاب والعقاب ، ومن هو جنكزخان الذى أفسد وخان، وما أصله وفصله وكيف كان قطعه ووصله ، حتى نفذ فى كبد العالم بالفساد نصله .

---

(١) الأوضار : مفرد وضر أى القذارة والوسخ .

(٢) جنكزخان ؛ أو جانكيز خان : وهو ملك التتار وسلطانهم الأول ، وهو الذى خرب البلاد وأفنى العباد ، واستولى على الممالك ، وليس للتتار ذكر قبله ، ولم يكن يتقيد بدين الإسلام ولا بغيره ، وله شجاعة مفرطة ، وعقل وافر ، ودهاء ومكر . وأول مظهره كان سنة (٥٩٩هـ) وهلك سنة (٦٢٤هـ) . سير أعلام النبلاء (٥٦٠٠) .

[٩٣] **فقال** : هذا رجل من بقايا التتار الساكنين من بلاد الشرق فى قفار ، وهم من بقايا يأجوج ومأجوج ، عن الإسلام منحرفون ، وعن الإيمان عوج ، سموا بالترك لأنهم تركوا عن دخول السد بالخروج ، فكانوا قبل جنكزخان مبددين فى صحارى لا يتفق منهم اثنان ، مسيرة أماكنهم ومدى مساكنهم شرقا بغرب نحو من ثمانية أشهر ، وشمالا بجنوب لا ينقص عن هذا المدى ولا يقصر ، حدها من الشرق حدود ممالك الخطا ، وأقصاها خان بالق وهى مدينة عظمى وورائها شرقا ، يا من يرقى ينتهى الحد بعد السير بالجد ، إلى بلدة عظيمة ولاياتها جسيمة تدعى خيسار[١] وأهلها كفار ، وهى مبدأ مملكة الصين يا ذا المجد الرصين ، ومن الشمال نواحى قرقير وسلنكاى، ومن الجنوب بلاد تدعى تنكيت وتبت[٢] ، وتبت هذه يا ذا النسك هى التى يتولد من غزالها المسك ، ومن الغرب وهى جهة قبلة تلك البلاد إذا صلى المسلمون منهم والعباد ، حدود بلاد أو يغور ، وما وراء تلك الكفورمن بلاد تركستان[٣] يا ذا الإحسان ، ويسير المجد منها إذا انفصل عنها كذا وكذا شهر حتى يصل من جهة غربها إلى ما وراء النهر .

ثم إن هؤلاء التتار كانوا فى تلك القفار بين هذه الحدود الأربعة فى مضيعة وأى مضيعة ، يتوالدون فى ذلك البر ، ويتهارجون فى ذلك السهل والوعر ، كالحيوانات السائبة فى البر والبحر ، لا حاكم يردعهم ، ولا دين اعتقاد يجمعهم ، وهم فيما بينهم قبائل وشعوب ، وأصناف وضروب ، وخلائق وأمم لا يعرفون الإسلام والسلم ؛ بل كل أمة تلعن أختها ، وتنهب

---

(١) خيسار : مدينة من مدن الثغور التى بين غزنة وهراة . معجم البلدان (٤٥١٣) .

(٢) تبت : بلد بأرض الترك . وهى دولة فى جنوب غرب الصين مشهورة باسم هضبة التبت . معجم البلدان (٢٤٣٠) .

(٣) تركستان : هو اسم جامع لجميع بلاد الترك وبها جبل زانك وجبل النار . معجم البلدان (٢٤٩٣) .

تختها[1] ، وتأكل رختها[2] ، وتل طائفة تعد غارتها وتقصد جارتها ، وكل من قوى على غيره كسره إما قتله وإما أسره ، لم تزل المكافحة بينهم قائمة، والمناطحة بين ثيرانهم وكباشهم دائمة ، وعيون الرشد والاهتداء عنهم نائمة ، وضوارى الظلم والاعتداء فى مسارح سوارح أسلامهم[3] سائمة ، يعدون النهب غنيمة ، والفسق والفجور والنميمة أجمل صنعة وأكمل شيمة .

يأكلون الكلاب والفار ، وما وجدوه من صيد القفار ، والميتة والدم والهوام ، لا يعرفون الحلال منها والحرام ، ويلبسون جلودها وأوبارها وأصوافها وأشعارها ، كما كان مشركو العرب فى الجاهلية ، قبل إشراق شمس الملة المحمدية ، لا زرع لهم ولا ثمر سوى نوع من الشجر ، يشبه شجر الخلاف[4] ، هو ثمرهم فى الشتاء والاصطياف ، اسمه قسوق .

وهم على ما هم عليه من الفسوق ، يعبدون الأوثان والأصنام ، ويسجدون للشمس إذا بزغت من الظلام ، ويعظمون النجوم ويعبدونها ، وتخاطبهم الجن ويرصدونها وفيهم كهنة يعتقدونها ، وسحرة ومكرة وسواجع وزجرة يجبى خراجهم إلى ملك الخطا ، وهم على أشد كفر وخطا قد تركب الكفر فى أحشائهم ، ﴿وإنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَاءِهِمْ﴾ [الأنعام:١٢١] .

وأعلى من فيهم من أكابرهم وذويهم علامة رياسته وانفراده بسياسته ، وأنهم فيهم ذو بأس شديد ، ورأى سديد ومال مديد ، كون ركابه من حديد ، وباقى أعيانهم وذوى مكانتهم وإمكانهم إن كانوا ذوى جد ، فركابهم قضيب ملوى أوقد ، وعندهم أفخر ملبوس جلود الكلاب والنموس ، والذئاب والتيوس

---

(١) التخت : كلمة فارسية تعنى عاصمة المملكة .

(٢) الرخت : أى الرخاء والنعم .

(٣) أى الأرض تنبت السلم وهو نوع من النبات .

(٤) الخلاف : صنف من شجر الصفصاف .

وقس على هذا جميع تجملاتهم ، ومفاخر آلاتهم فهم فى قديم الزمان وبعد الحدثان من حين بلغ ذو القرنين بين السدين ، وساوى على يأجوج ومأجوج بين الصدفين إلى آخر وقت ، كانوا فى قلة ومقت ، وضيق حال وسوء بال ، لا دنيا رخية ولا آخرة رضية ، حتى نبغ منهم هذا اللعين الطاغية تموجين ، الذى تسمى بجنكيزخان ، وساعده قضاء الديان ، فأمده الزمان وأعطاه المكان، لأمر يريده الرحمن وقضاء قدره على عبيده فى سالف الأزمان ، فطم العالم بالفساد فأهلك العباد والبلاد ، وأخلى الديار والدار، وعم غالب بلاد الإسلام بالشنار والبوار ، فصلى الله على سيد بنى عدنان بل أشرف جنس الإنسان ، الذى قال : «يخرج فى آخر الزمان رجل يسمى أمير العصب أصحابه مخسرون محقرون مقصون عن أبواب السلطان يأتونه من كل فج عميق كأنهم فزع الطريق يورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها»[1] .

فاتبعه منهم النساء والرجال اتباع اليهود والكفرة والمسيح الدجال ، أمم لا يحصرها حساب ولا يحصيها ديوان ولا كتاب ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ [المدثر:٣١] فأرشد إلى طريق الضلال بعدما تاهوا ، وصار كل من أولئك الطغاة الكفرة الهجرة ، الأوغاد اللئام ، وكل كلاب خادم كلاب الصعود يجرى سيفه الكال المكدود[2] ، من أشراف الملوك وملوك الأشراف، وفى أعضاء الأسود ، وفى رقاب النمور والفهود ، وكل ماضغ شيح وقيصوم وعلج[3] من أولئك العلوج[4] وعلجوم[5] ، يتفكه فى أنواع المستلذات من المشروب والمطعوم ، وكل صعلوك معلوك ، من تركى متروك أو خدم

---

(١) الحديث : لم نعثر عليه فيما بين أيدينا من كتب مطبوعة .

(٢) الكال المكدود : المتعب من كثرة الضرب والطعن .

(٣) علج : الحمار الوحشى السمين القوى .

(٤) العلوج : أى العير .

(٥) العُلْجُوم : الجمع علاجيم وهو البستان الكثير النخل .

مملوك ، يتحكم في رقاب أكابر الملوك ، ويستعبدون أحرار أولادهم ، ويستفرشون زوجاتهم وبناتهم في بلادهم :

على رأسِ عبدٍ تاجُ عزٍّ يُزينُه　　　وفي رجلِ حُرٍّ قيدُ ذُلٍّ يُشينُه

ومن لا يعرف البطائن المروية(١) ولم يسمع بالرقاع الكرباسية(٢) ، يستوطي الاستبرق والديباج ، ويتقلب على تخوت الصندل والساج(٣) ، ويترقى إلى سرر الأبنوس والعاج ، ويعامل التجار والمضاربين في البر والبحار ، بألوف الألوف من الدرهم والدينار ، فيجبى إليهم نفائس المضارب من المشارق والمغارب ، ومكامن المعادن وذخائر الخزائن ، كل ذلك بواسطة ذلك الطاغية واستيلاء الفئة الباغية .

وكان من أمر هذا المصاب الذى بدل حلاوة العيش بمرار المصاب ، وخلد في الدهر قواعد البلايا والأوصاب(٤) ، أن الله القاهر فوق عباده الذى لا يسئل عما يفعل من مراده ، بل له المراد في عباده وبلادِه المتصرف في ملكه تصرف المالك في ملكه ، لما أراد ابتذال الصون وعموم الفساد في عالم الكون ، واستئصال غالب أهل الأرض وإذاقة بعض عباده بأس بعض ، وإظهار آثار غضبة على صفحات الشهود ، وإبراز أسرار قهره على وجنات الوجود ، ولحن سطور صدور علماء العالم على روح الورود ، بلسان نار السخط ذات الوقود ، ونقص أرض العلم من أطرافها ، وإخلاء ربوع المحاسن من آلافها ؛ أينع هذا التمساح من أفواج أمواج هذه البحار ، ونبع هذا التنين المبين من أوعار تلك القفار وأغوار أوغادها تيك التتار ، فكان

---

(١) البطائن المروية : خفايا الأمور وأسرارها .

(٢) الرقاع الكرباسية : كلمة فارسية تعني أثواب بيضاء .

(٣) الساج : نوع من أنواع الشجر .

(٤) الأوصاب ، مفردها وصب : وهو المرض .

ممتازا على أقرانه بوفور عقله وحسن بيانه ، ذا فكر مصيب ورأى صائب ، وحزم مجيب وعزم ثاقب ، وهمة تبارى الأفلاك ، وثبات يجارى السماك كسر بصدماته الأكاسرة ، وقص بسطواته القياصرة ، وقرع بعزماته على قمم الفراعنة والجبابرة ، وقهر بحملاته قهارمة خواقين القياصرة[1] ، وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، أعجميا عجريا[2] لا يحسب ولا ينسب ، لا طالع الأخبار، ولا اقتفى فى سياسة الممالك الآثار ؛ بل فرع ما فرعه من القواعد فى صحيفة تفكيره ، واخترع ما ابتدعه من تدبير الملك من مطالعة هواجس ضميره ، فأسس قواعد لو أدركه اسكندر ودارا[3] لما وسعهما إلا اقتفاء أثره، وشيد مبانى لو بلغت نمروذ وشدادا لبنيا قصور قصورهما على أركان خبره وخبره.

ورتب تجهيز السرايا والجنود ، وربط عقود الجيوش والبنود بطرائق يعجز عنها مهندس الحكمة ، ويتقاعد عن حل رموزها معزم الفطنة ، وغاية ما يتعاناه ويستعمله ويتعاطاه جيوش الأتراك فى بسيط الأرض ، من إبرام طرائق عساكرهم والنقض ، إنما هو من قوانين ما رتبه وأفانين ما هذبه وركبه ، وله فى ترتيب حراب الحروب وما فى فن الضرب والضراب من ضروب ، وطرائق الاصطياد مخترعات دقائق لم يسبق إليها من لدن كيخسرو وكيقباد[4] ، أحكم بها الموافق ونصر المصادق ، وكبت المعادى، وكسر الأعادى ، واتسع له فى التضييق على الإسلام والمسلمين المجال ،

---

(١) القهارمة ، مفردها قهرمان : وزير الملك. وخواقين ، مفردها خاقان : الملك .

(٢) عجرياً : معيباً ومشيناً .

(٣) دارا ؛ من كبار ملوك الهند وكان ولى عهد الإمبراطور شاه جيهان . مات سنة (١٦٥٩م) .

(٤) كيخسر ؛ ملك من ملوك الروم السلاجقة ، تفاقمت عليه محنة التتار فقتلوه ونهبوا بلاده عام (١٢٨٣م) . كيقباد ؛ ملك من ملوك الروم السلاجقة . كان بينه وبين التتار حروب كثيرة وتوفى أثنائها عام (١٢٣٦م) .

فكل من عامله بالمجاملة ، وتلقاه بالعبودية وحسن المعاملة أبقى على نفسه وأهله وماله ، وحصنهم من أليم خيله ورجاله ، ومن قابله بالمقاتلة وقاتله بالمقابلة ، وتلافى صف قتاله سورة المجادلة ، محا سطور كونه من لوح الوجود ، وأوطأ سنابك خيله منه الجباه والخدود ، فخرب ديارهم ومسح آثارهم مع شركه وإسلامهم ، وتبدد عساكره ونظامهم ، ومع أن أكثر الملوك والسلاطين وحكام الممالك الإسلامية من الأمراء والأساطين ؛ لعدم اكتراثهم بالأتراك والتتر وشدة ما هم فيه من النخوة والبطر ، ولاعتمادهم على حصونهم الحصينة ، وتعويلهم على معاقلهم المكينة ولكثرة العدد والعدد ، ومساعدة المدد والمدد ، ولوفور العمائر ببلادهم وخراب بلاده ، وبسطة استعدادهم وضيق استعداده ، لم يعاملوه إلا بالمكافحة ، ولا ردوا جواب خطاباته إلا باللعن والمكالحة والسب والمقابحة ، ولا قابلوه إلا بالمراماحة والمراوسة والمناطحة ، فقتلهم وأبادهم واستصفى طارفهم وتلادهم ، وتوطن ديارهم وبلادهم ، وأبادهم عن آخرهم ، وأطفأ قبائل عشائرهم ، فمد لأكابرهم أسمطة[1] الرزايا ، ووضع فى أفواه أصاغرهم أثدية المنايا ، وأضافهم فى ولائم الدمار وأطافهم على نجائب[2] الانكسار ، فى ملابس البوار ، فاستأصل شأفتهم بالكلية وحكم فيهم صوائل المنية ، فلم يبق من مائة ألف إنسان مثلا مائة إنسان ، وذلك أيضا إما على سبيل التغافل أو على سبيل النسيان وسيذكر على سبيل الإجمال ما يدل على تفصيل ما له من أحوال ، وشواهد ما فزعه من أهوال .

واستمر ذلك فى ذريته وإن كانوا رجعوا عن ملته ، وأصل هذه الأصلة[3] التى أضحت بخلقان اللعن أكسى من بصله[4] ، قبيلة من تلك التتار

---

(١) أسمطة ، مفردها السمط : الخيط والحبل .

(٢) النجائب ، مفردها النجيبة : الناقة .

(٣) أى أصل هذا الجنس من البشر .

(٤) أكسى من بصله : وهذا مثل يضرب لمن يلبس ملابس كثيرة .

الساكنين فى تلك القفار ، تسمى قنات ظلمة عتات ، غير أمناء ولا ثقات ، منها آباؤه وأجداده ، وفيها أقاربه وأحفاده ، وإخوته وأولاده ، فنشأ كما ذكر بطلا باسلا وشجاعا كاملا ، سهام أفكاره فى عمره مصيبة ، ورهام[1] آرائه فى مكره خصيبة .

ثم اتصل بعد ما أخنى[2] وخان بملك الخطا يسمى باونك خان ، وأظهر من أنواع الفراسة والفروسة والكياسة ما فاق به أناسه ، وفات من العقل قياسه ، فقربه الملك وأدناه ولمهماته اصطفاه ، ولا زال يترقى عنده إلى أن ملك جنده وصار عضده وزنده ، ودستور ممالكه ومسلك مسالكه ، وحاكم أمرائه وناظم أمور وزرائه ، وناظر جمهور كبرائه ، وعين أعوانه وعون أعيانه ، وأعز من إخوته وأولاده ، وأبر من حفدته وتلاده وكثفت حواشيه وعظمت غواشيه[3] ، وملأت السهل والوعر فواشيه ومواشيه[4] ، فثقل على الوزراء وصعب على الأمراء إذ مدار الملك صار عليه ، ومرجع الأمير والمأمور إليه ، فحسده أولاد الخان وإخوته وأجناده وأسرته ، وأعملوا له المكائد ونصبوا له المصائد ، وتعاطوا إفساد صورته وتواطؤا على إخماد سيرته .

فصاروا يتناوبون على ذلك فى غيبته ، ويمزقون أديم عرضه عند الخان ، ويشقون ستر عصمته بمخاليب البهتان ، ويراقبون للكلام أوقات القبول ، ويواظبون فى السعاية عليه بدلائل المعقول ، حتى أوغروا صدر الملك عليه ، وأخذ يفكر فى كيفية إيصال الإساءة إليه ، ولم يقدر على

---

(١) الرهام ، مفردها الرهم : الضعف .

(٢) غدر وأفحش .

(٣) دواهيه .

(٤) أزهاره الجميلة المختلفة الألوان .

مواجهته لوفور جماعته وكثرة حاشيته ، فإن أوتاده كانت ثابتة وغراسه كالأرزة[1] نابتة ، وفروع دوحة عصباته قد أحاطت بالملك من كل جهاته ، حتى قيل : إن ذلك الثقيل كان له من القرابات وذوى الأرحام والعصبات والأولاد والأحفاد ، ما جاوز فى التعداد عشرة آلاف نسمة ، كل له حرمة وكلمة ، فأضمر له السلطان البيات ، لذلك من عسكره أولى الثبات والأثبات الثقات ، ولم يختلف عليه فى ذلك اثنان لأنه كان قد استحكم فيهم منه الشنآن[2] ، وعلموا أن سهم مكرهم نفذ ، وحسام فكرهم فى قطعه فلذ[3] ، ورأوا من الرأى أرصنه أن يراقبوا لحتفه مكمنه ، فتواعدوا على ليلة معينة يدهمون فيها مأمنه ، وكان عند الخان صبيان محرمان لا يؤبه إليهما ولا يعول فى الأمور عليهما ، يدعى أحدهما : كلك والآخر : باده ، فانسلا من بين أولئك القادة ، وسلكا طريقا غير العادة ، وأتيا تموجين الطاغية اللعين فى خفية ، ونبها وعيه وأخبراه وبصراه وأنذراه وحذراه ؛ بما تمالأ[4] عليه الملك مع عسكره المنهمك .

وقالا : أيها العفريت قد طبخت لك قدرُ التبييت[5] ، فتنبه من النوم وراقب فى الليلة الفلانية هجوم القوم ، فإنه قد مرج مارج الفتنة ، فامرج وعن وهاد غفلتك اعرج ، إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج ، وباعاه من السر ما جرى بتخيير المشترى ، وقصا عليه القصص ؛ فخلصا طير حياته من القفص ، وظبى نجاته من القنص ، فشكر لهما فضلهما واستكتمهما قولهما، ثم تثبت فى أمره وأخفاه عن زيده وعمره ، وجمع تلك الليلة رجله

---

(١) الأرزة : شجر يشتهر بصلابة خشبه وجودته .

(٢) الشنآن : البغض والكراهية .

(٣) قطع ونفذ .

(٤) أى تشاور .

(٥) أى قدر له الأمر ليلاً .

وخيله، ولم يبد تلك الحال لأحد من الرجال ، بل أخلى بيوته ولازم سكوته ، وقصد أحد الجوانب بما معه من راجل وراكب ، وأقام فى كمين ، ينظر أيصدق الواشى أم يمين[1] ، فما مضى هزيع[2] من الليل إلا وقد هبطت الخيل ، فوجدوا البيوت خالية والأطلال خاوية ، فتحقق صدق الناقل وأنه ناصح عاقل ، فعمل مصلحته وأخذ حذره وأسلحته وتقرر وقوع النكد ، فتقدم إمامهم واستعد فقصدوه ، وبالأذى رصدوه ولا زالوا يتبعونه حتى التقوا بمكان يسمى ببالجونة ، وهو عين ماء فى حدود بلاد الخطا فاشتعلت بين الفريقين نار الحرب ، وقصد كل منهم الآخر بالطعن والضرب ، فأعانه الله ونصره ، فكسر الخان وعسكره ، وفر بمن معه من فئة وذلك فى سنة تسع وتسعين وخمسمائة.

وغنم تموجين من الأموال والمواشى والأثقال ، وذخائر الخزائن ونفائس البحار والمعادن ، ما فات العد والحصر خارجا عن سعادة النصر ، وهرب الخان وتهدمت منه الأركان ؛ فجمع جنكزخان عسكره ، وضبط أسماء من حضره ومن كان شاهد القتال ومواقف الحرب والجدال ، من النساء والصبيان والرجال ، ومن خادم ومخدوم ، وخاصم ومخصوم ، ومأمور وأمير ، وكبير وصغير ، حتى السائس والجمال ، والطباخ والبغال والطفل الرضيع ، والنذل والوضيع ، ومن شهد تلك الغارة ، أو كان فى تلك الداره ، ولو حاضر للتفرج مع النظارة ، واستبشر بوجودهم وتيمن بورودهم، فأثبتهم فى الديوان بأسماء آبائهم وجدودهم ، وفرق عليهم ذلك الفىء ولم يرفع إلى خزائنه منه شىء ، بل وزع ذلك المغنم الوافر العظيم المتكاثر على الحاضرين معه من العساكر ، وضبط أسماءهم فى الدفاتر ، وفرق ذلك العرض العريض الطويل على قدر الحقير منهم والجليل ووعدهم بكل جميل .

---

(١) يكذب .

(٢) جزء من الليل ، وقيل ساعة.

وأما الغلامان اللذان أخبراه ، وعلى ما كان أضمره الخان أظهراه ، وكانا سبب حياته وخلاصه من الموت ونجاته ، فإنه جعلهما ترخان فصار لسهم مقاصده كأنهما شرخان[1] ؛ والترخان عبارة عن المعافى المطلق ، يستوفى حقوقه ولا يقوم بما عليه من حق ، لا يؤاخذ بقصاص إن قتل ، وقس على هذا ما يوجبه القول والعمل ؛ مقضى المآرب موصول المطالب ، لا يكلف بخدمة ومباشرة ولا بحضور ومعاشرة ، مهما طلب أعطى ويعد مصيبا ولو يخطى ، وأعلى مراتبه فى مراعاة جانبه ؛ أنه يدخل على السلطان من غير استئذان ، وهو نائم مع سراريه ونسائه وجواريه فيذكر ما له من مآرب فتقضى ، ومن شفاعة فتقبل وتمضى ، ويعطى بذلك مناشير وتواقيع وتقارير تبلغ التاسع من أولاده ، ويشمل أحكامها جميع أسباطه وأحفاده .

ولما انتصر وحصل أمنه واستقر ، وتعاظم أمره واشتهر ، وعظم صيته وانتشر ، قرر كل من حضر تلك الوقعة فيما يليق به من منصب ورفعة ، فأقبلت القبائل إليه وانهالت الرؤوس والوجوه عليه ، ورجع الخان واستعد وأعد ما وصلت إليه يده من عدد ، واستعان عليه بالمدد والعدد ، ثم تلاقيا كرتين وتصاولا مرتين ، انكسر الخان فى الأولى ، وقبض عليه بعد الكسرة فى الأخرى فقتله وأباد ، واستملك بلاده ، واستولى على عساكره واستحوذ على ذخائره وعشائره ، وهربت أولاد الخان ، ولجأت إلى أطراف تركستان ، ثم أرسل سلطان الخطا والصين بكلام رصين ، يدل على عقل حصين واسم ذلك السلطان التون خان ؛ وطلب المهادنة والموافقة ، والمصافاة والمصادقة ، فلم يلتفت إلى كلامه ؛ فضلا عن إعزازه وإكرامه اتكالا على حسبه ، واستنادا إلى نشبه[2] ونسبه ، واعتمادا على سعة ممالكه،

---

(١) شرخان : مثلان يقال هو شرخى أى مثلى .

(٢) أى أصله .

وكثرة ملوكه ، ومناعة حصونه ، وعمارة بلاده ووفرة مملوكه ، فإن ممالك جنكزخان بالنسبة إلى ولايات الخاقان لاش ، وأقل من لاش ، وعساكره وقبائله ، بالنظر إلى أهل الصين أوشاب[1] أوباش ، فرجع قصاد جنكزخان بالخيبة ، وذكروا ما رأوا لملك الصين من عظمة وهيبة ، فلم يلتفت إليه ، ثم قصد التوجه عليه بعدد كالرمال ومدد كالجبال ، وواقعه فكسره ، وناقفه فحصره[2] ، وقبض عليه وأباده واستصفى ولايته وبلاده وكانت هذه الكسرة والنصرة ، في سنة إحدى وستمائة من الهجرة .

فاستقل من غير منازع ولا ممانع ولا مدافع ، فلما خلصت له الممالك وانقاد له المملوك والمالك ، أخذ في ترتيب الأمور وتهذيب الجمهور ، وطير أجنحة مراسيمه إلى أطراف ممالكه وأكناف أقاليمه ، فرفع جميع ما هم عليه من النهب والغارات والتحزبات وطلب الثارات ، فهدم قواعد الظلم والتعدى في ممالكه ، فلم ير أيمن من ولايته ، ولا آمن من مسالكه وهي ممالك المغل والخطا ، و إلى الصين شرقا وولايات المغل والجنا وبلاد الترك ، وإلى حدود أترار ما وراء النهر غربا .

فجرى بعد النهب والإسار في ممالك المغل والتتار ، والبغي والعدوان العدل والأمان ، والسلامة والاطمئنان وبعد السرقة والخيانة الوفاء والأمانة ، وأمر بوضع البرد[3] والمنارات والعلائم والاشارات ، وعمرت المفاوز والمناهل ، وسكنت الصحارى والمذاهل[4] ، وعرفت طرق المهامة

---

(١) شرذمة قليلة حقيرة .

(٢) أى ناوشه فى القتال .

(٣) البرد ، مفردها البريد : المكتب الذى يتسلم ويسلم الأشياء المرسلة .

(٤) المذاهل ، مفردها المذهل : المكان الذى يُذْهَل فيه ويغيب عنه رشده .

والمجاهل[1] ، وائتلفت تلك الطوائف والأمم وانتشر صيت عدلها فى العرب والعجم ، واخترع كما ذكر أنواع سياسات ، وقرر للمملكة قواعد بنيان وأساسات ، ألف بها بين تلك الطوائف فلم ير بينهم مخالف ، ولا غير موالف على سعة ممالكهم واختلاف مسالكهم ، وتعدد أديانهم وتفاوت كيل أخلاقهم وميزانهم ، فإنهم كانوا ما بين مسلمين ومشركين ومجوس وأرباب ناقوس ويهود ، ومن لا يدين لمعبود ، وصباه وغواه ، وعباد الشمس والنجوم ؛ ومن يسجد لها أوان الرجوم ، وكل منهم يتعصب لمذهبه ويغض من مذهب صاحبه ، فلم يتعرض لأحد فى دينه ولا وقف له فى طريق اعتقاده ويقينه .

وأما هو فلم يتقيد بدين لا كافر مع الكافرين ، ولا ملحد مع الملحدين ، ولا يتعصب بملة من الملل ، ولا يميل لنحلة من النحل ، بل يعظم علماء كل طائفة ، ويحترم زهاد كل ملة على دينها عاكفة ، وبعد تلك الخصلة قربه[2] حيث يعظم كل دين وحزبه ، وكل من اختار من أولاده ، وأسباطه وأحفاده ، وأمرائه ورعيته ، وأجناده دينا من الأديان ، لا يعترض عليه أى دين كان ، فبعضهم كان مسلما حنيفيا وبعض كان يهوديا ، وبعض نصرانيا ، وبعض مجوسيا ، إلى غير ذلك من الإلحاد والزندقة وعدم الاعتقاد ، وحيث لم يتعرضوا إلى دنياه ولا نازعوه ملكه الذى تولاه ، لم يشاققهم فى دينهم ولم يوافقهم فى يقينهم .

واخترع هو لنفسه فى الملك قواعد حمل عليها المقارب والمباعد ، ثم لما لم يكن له كتاب ولا خط ، ولا لأولئك الحروف فلم يعرفون به قط ، أمر أذكياء قبيلته وعقلاء مملكته ، أن يضعوا له خطا وقلما يكون لهم علما وعملا، فوضعوا له قلم المغل ، واشتغلوا به أهم شغل ونسبوه إلى قبيلته ،

---

(١) المَجَاهل ، مفردها المجهل : المفازة لا أعلام فيها أو لا يهتدى فيها .

(٢) أى قربه من فعل الخير والعمل الصالح .

ليدلوا به على فضيلته ، فقالوا : قوتاتقو ؛ يعنى قلم قنات ، وهى قبيلة ذلك القنات، فوضعوا مفرداته ورتبوها ثم حملوها وركبوها ، وهى أربعة عشر حرفا ظاهرة بينهم لا تخفى ، وهذه صورة مفرداتها : ..... [1]

فأمر أولاده وأحفاده وجماعته وأجناده ، ومهرة الرجال والأذكياء والأطفال ، أن يتعلموا هذا الخط وينشروه ، ويتداولوه ويشهروه ، فانتشر بينهم حتى ملأ رأسهم وعينهم ، فرسموا به المراسيم والمناشير ، ورصعوا بجواهره جباه المساطير ، ووضعوا الرسومات الديوانية ، والتوقيعات السلطانية ، وابتدع لهم تواريخ وحساب كل ذلك بهذا الكتاب .

ثم لما تقرر أمره وانتشر فى الآفاق ذكره ، مهد قواعد أسسها ، ونصب فى دوحة ملكه أصول خلاف غرسها ، ووضع على ما اقتضاه رأيه التعيس وفكره الخسيس ، طرقا وأفانين ودرب فى أمور الحكومات أساليب وقوانين ، فجعل لكل حكومة حكما ، وفوّق لكل حادثة سهما ، وفرع لكل حسنة مثوبة ، ولكل سيئة عقوبة ، وقرر لكل معصية حدا ولكل بنيان مخالفة هدا ، ولكل فرع أصلا ، ولكل سهم من الوقائع نصلا .

وبين كيفية الصيد والحرب ، وسلك فى كل ذلك الطريق والدرب ، وألقى دروس ذلك على أولاده وحفدته وجيوشه ورعيته ، بحيث إنهم حفظوها ورعوها وفى سير سيرهم هرجا ومرجا وعوها .

فمن أحكامها المظلمة وفروعها المعتمة ، صلب السارق وخنق الزانى، وإن شهد بذلك واحد فلا يحتاج إلى ثانى ، ثم فصل حد السارق بهذيان فارق، فقال فى السرقة : من جر كاه أو بيت شعر واه ، بوجوب الصلب ، وبقطع اليدان كان بالنقب[2] ، ثم كلا السارقين يؤخذ ما لهما من مال وعين ويسترق ما لهما من أولاد ، وينتقل إلى السلطنة ما لهما من طريف وتلاد .

---

(١) بياض فى أصل المخطوطة .

(٢) أى بالتحرى والتنقيب .

ومنها حقية دعوى من سبق سواء كذب أو صدق ، ومنها استبعاد الأحرار ، وتوارث الفلاح والأكّار[1] ، ومنها توريث نكاح الزوجة لأقارب الزوج ، وتداولهم إياها فوجا بعد فوج ، فإن تزوجها أحد منهم كان أحق بها ، ولا تخرج عنهم ، وإلا زوجوها بمن شاؤا ، وأخذوا مهرها وباؤا ، ومنها عدم العدة وعدم انحصار الزوجات فى عدة ، ومنها الأخذ بقول الجوارى والصبيان ، وبما يتقوله على الرجال العبيد والنسوان .

ومنها امتثال أمر السلطان على الفور من غير توان ، ومنها لزوم ما لا يلزم من العطايا ، وإيجاب ما يتبرع به الإنسان من التحملات والهدايا ، حتى لو أعطى شخص شخصا من ماله هدية أو شقصا[2] ، فإن ذاك يلزمه وفى كل عام يغرمه ، ومنها الجثو بين يدى الحاكم على الركب وقت التحاكم ، ومنها مطالبة الجار بالجار ، ومعاقبة البرىء بجريمة مرتكب الأوزار وذلك لأدنى مناسبة ، من معرفة أو مصاحبة ، فضلا عن أكبر أصحابه ، أو شديد قرابه ، ومنها أن لا يتقدم الوضيع على الشريف ، ولو كان ذا مال عريض وجاه كثيف . ومنها العمل بما يقتضيه العقل والكف عما لا يدركه ولو ورد به النقل . ومنها منع عفو الحاكم وإن عفا المظلوم عن الظالم .

ونحو هذه الخرافات الباطلة والهذيانات العاطلة ، ومن أمحقها وأوسخها وأخسفها ، أنه لو أخذ أحد أبله عن قواعدهم ذو غفلة ، ومن ثوب أحدهم قملة، فإن دفعها إلى صاحبها خلص من تبعة عواقبها ، وغرامة مطالبها ، فإن شاء قصعها وإن أراد وضعها ، وربما اختار عودها إلى مكانها فرجعها وإن قتلها أو رماها ، وإلى صاحبها ما أداها ، فإن صاحبها يخاصمه وإلى حاكم التتار يحاكمه ، ويدعى عليه بين يديه بأن هذا الإنسان عمد إلى حيوان

---

(١) الأكار : الحرّاث .

(٢) النصيب والقطعة من الشىء .

ربيته بين سحرى ونحرى ، وغذيته بدم صدرى وظهرى ، فقتله قصدا وأضاعه عمدا ، من غير سبب تقدم إليه ، ولا إيذاء اجترأ به عليه ، فينسبه إلى الاجترام ويأخذ ديتها منه بالاغترام .

وقس على هذا اليسير أنواعا من الكثير ، ومن نتن هذه البعرة على خرافة البعير ، ومن هذه القواعد أمر الأقارب والأباعد بما يستصوبه العقل ، ويستنتجه النقل ، من سلوك طريق الفتوة ومعاملة الخلق بالمروة والكرم والإحسان ، والمداراة مع كل إنسان ، والكف عن الظلم والغارات ، اللهم إلا فى طلب الثارات .

ثم وضع طرق المكاتبات والمراسلات والمشافهات والمخاطبات ، فكان فى المكاتبات طريقة رسمه أن لا يزيد على وضع اسمه ، مثل أن يقول فى أول الكتاب وبراعة استهلال الخطاب ، عند ابتداء المقال بعد عدة أوصال ، جنكز خان كلامى ، ثم يكتب تحته من نصف السطر الثانى إلى فلان ليفعل كذا ، ولا يتعلل بإن وإذا ، ثم يذكر مخ المقصود بطريق معهود ، بين العبارات من غير مجازات واستعارات ، ويختم بذكر الزمان واسم المنزل والمكان ، وإذا استدعى أحدا إلى الطاعة وملوك السنة أسوة الجماعة ، فإنه يتجنب التهويل والتهديد ، ويتحامى عن التشريد والتشديد ، ويرغب بالوعد ويترك الوعيد ، ثم يقول : إن سمعتم وأطعتم فزتم وغنمتم ، وإن أبيتم وتماديتم فليس أمر ذلك إلينا ولا درك علمه علينا ، يرى فيكم الخالق القديم رأيه فإن فى تقديره وتدبيره كفاية ، فهذه القاعدة باقية فى تلك الفئة الباغية مستمرة على الدوام ، وإلى هذه الأيام جارية على هذا النمط يكتبون اسم الخان والخاقان فقط ، وكذلك الأمراء والوزراء والمباشرون والكبراء ، يكتبون فى أول الكتاب فلان لا كنية ولا جناب ، وهكذا إلى الأكابر من الأدانى يذكرون اسم الكبير ووظيفته فلان لا الفلانى .

ولما فرغ من ترتيب هذه القواعد الملعونة وخرج بها على خلاف الشريعة الميمونة وقرر عليها الأمور الديوانية والأحكام السلطانية ، أمر بها فكتبت وبهذا الخط رتبت ورسمت فى طوامير[1] ، ولفت فى شفق الحرير ، وزمكت[2] بالذهب ورصعت بالجواهر ، كما فعل مانى[3] النقاش الكافر واضع مذهب المجوس ، ومصوره على صفحات الطروس[4] ، ومبرز المعقول بطريق المحسوس ليكون أقرب إلى تفهيم النفوس ، فى كتابه المسمى (يزند واستا) ثم أمر باحترامها وتوقيرها ، والمحافظة على ضبطها وتحريرها، والعمل بها والاقتداء بما فيها ، وتعلق أهل ملته بقوادمها وخوافيها، ثم رفعت إلى خزائنه وهى عندهم أعز من الكبريت الأحمر فى معادنه ، واسمها بالمغلى : التورة ، وتفسيرها : الملة المأثورة ، فإذا جلس منهم سلطان على سرير ، وذلك بما للرؤساء من اتفاق وتدبير ، وعادتهم فى ذلك أنهم إذا رفعوا عليهم سلطانا ، وأرادوا أن يبنوا لدار المملكة خانا ؛ اجتمع الأمراء من الأطراف ، واستدعوا أركان الثغور والأكناف ، واشتوروا فيما بينهم مدة أيام ، واستمروا فى ذلك ما بين نقض وإبرام ، وربما أقاموا فى ذلك الجمع العام حولا جميعا أو ضعفى عام ، ويسمون تلك الجمعية (قورلتاى) ، وهى مستمرة الحكم فى المغل والجفتاى ، وسبب ذلك تدافع الإمرة ، والفرار من تلك السلطنة الحلوة المرة ، كما كان الصحابة الكرام يتدافعون الفتاوى خوف الآثام.

---

(١) طوامير ، مفردها الطامور : الصحيفة .

(٢) سكت .

(٣) مانى النقاش : مؤسس المذهب المانوى لدى الفرس القدماء ؛ وهو المذهب القائل بوجود إله النور وآخر للظلام يحكمان العالم . هلك سنة (٢٧٧م) .

(٤) الصحيفة التى محيت ثم كتبت .

فإذا وقع الاتفاق بين الرفاق وأمراء الجند ورؤساء الآفاق على واحد من أولاد الخان ، وأن يكون عليهم الملك والسلطان ، وتصوب الرأى عليه وتسدد وضعوه على لبد أسود[1] ، ثم رفعه من الأرض إلى السرير أربعة أنفس كل أمير كبير ، كل حامل بطرف ، رافع فى زعمة راية الشرف، والخان يصيح بلسان فصيح : يا رؤساء ويا أمراء ويا ملوك ويا زعماء ، أنا ما أقدر أن أتسلطن عليكم ولا طاقة لى أن أتحكم لديكم ، ولا قوة لى بهذا الحمل الثقيل ، والدخول تحت هذا الأمر العريض الطويل ، فيقولون : بلى يا مولانا الخان تقدر أن تقوم بحمل أعباء هذا الشأن ، فيتكرر الخطاب ويتعدد الجواب حتى يجلسوه على السرير ، ويبتهج بذلك الكبير والصغير ، والمأمور والأمير ، ثم يأتون بالتوراة الجنكزخانية الملعونة الشيطانية ملبجلة معظمة محترمة مكرمة ، فينهضون إعظاما لها ، ويتبركون بمسهم أذيالها، فينشرونها ويشهرونها ، ثم ينصتون فيقرؤنها ، ثم يبايعون الخان على إقامتها، وأن يراعى أحكامها حق رعايتها ، ويبايعهم على امتثال أحكامها ، وإجراء نقضها وإبرامها ، فيجيب كل منهم الأمر على ذلك وأن يقيم شعائرها المملوك والمالك ، ثم يضربون له الجنوك[2] مرار ، ثم يتوجهون إلى الشمس فى وجه النهار ، ويضربون لها الجنوك ويسجد لها من فيهم من ملك ومملوك ، ولا يفعلون هذا الفعل الشنيع إلا فى أيام الربيع .

فإذا تعاقدوا وتبايعوا وتعاهدوا وتتابعوا ، رفعوا تلك الكفريات وأحضروا الآلات الخمريات ، فأدار الخان عليهم الكاسات ، واستعملوا الأقداح والطاسات ، وفتح الخزائن وأظهر المكامن ، ونثر النثار من الدرهم والدينار ، وخلع الخلع والتشاريف ، وأعاد فى دروس النفائس أبحاث

---

(١) لَبَد : البساط . والقماش .

(٢) الجنوك ، مفردها الجنك : آلة طرب ، وهى كلمة فارسية .

التصريف ، واستمروا على ذلك أياما والإنعامات تدر عليهم خاصا وعاما ، ثم يأذن لهم فيتفرقون ، ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ، وهذه الطريقة مستعملة وإلى آخر وقت غير مهملة فى جميع ممالك الشرق: من الخطا ، والدشت[1] ، والصين[2] ، والمغل ، والجتا ، وفى ولايات الجفتاى، والروم ، قد اعتادوا غالب هذه القواعد والرسوم فقدموها على القواعد الإسلامية والشرائع الأحمدية المحمدية ، اللهم ألهمنا الصواب ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

[٩٤] قيل : وسبب تحركه إلى ممالك الإسلام ، وتوجه عنان سخطه إلى طلب الانتقام ؛ هو أنه لما استقر أمره وانتشر بعد الجور بالعدل ذكره ، وطابت بلاده وأمنت ، وخمدت حركات الظلم وسكنت ، توجه من بلاد ما وراء النهر فئة ، فى سنة ثلاث عشرة وستمائة فيهم ثلاثة أنفار من أعيان التجار ، أحدهم : يدعى أحمد الخجندى ، والآخر : عبد الله ابن الأمير حسن الجندى ، والثالث : أحمد بلجيخ ، ومعهم من أنواع المتاجر ونفائس الأقمشة والذخائر ما يصلح للملوك أولى المفاخر ، فوصلوا إلى بلاده الجارى فيها مياه كفره وعناده ، وانتهوا إلى قوقات[3] والمسيل[4] وهما محل سريره الذليل ، فأكرم نزلهم ورفع محلهم ، وأنزلهم فى قباب بيض ، وأفاض عليهم الكرم العريض ، وكان شعار المسلمين فى تلك البلد أن ينزلوهم فى قباب بيض من لبد ، وكانوا يقربون المسلمين ويحترمونهم دون الناس أجمعين ، ثم إن جنكزخان دعا أحد أولئك الأعيان واستعرض قماشه وساومه بعد ما قربه

---

(١) الدشت : قرية من قرى أصبهاز . معجم البلدان (٤٨٠٦) .

(٢) الصين : بلاد فى بحر المشرق مائلة إلى الجنوب وشماليها الترك . وسميت بذلك لأن صين بن بغبر بن كماد أول من هلها وسكنها . معجم البلدان (٧٧٠٥) .

(٣) القوقات : الأرض الغليظة .

(٤) المَسيل : جمع مُسُل وأمسلة وهو الجريد الرطب .

وأكرمه ، فطلب منه أضعاف ثمنه وسامه[1] ما يقضى بغبيه[2] وغبنه ، فما ورد جوابه ولا اعتبر خطابه .

ثم طلب رفيقيه واستعرض بضائعهما عليه ؛ ثم ساومهما الثمن ، فقالا: يا ملك الزمن إن صلح هذا القماش فخذ مُناك به بلاش ، فليكن ثمنه رضاك، وهدية فى مقابلة ملتقاك ، وتقدمة منا إليك ؛ بل خدمة لخادم أدخلنا عليك ، فأعجبه هذا الحوار ، وقال : بل أنتم تجار ، إنما جئتم لتربحوا وتكسبوا علينا وتنجحوا ، وأنتم ضيوفنا ، فالأولى أن يشملكم معروفنا ولكن أنا أقول قولا وأدفع إليكم نولا ، فإن رأيتم فيه فائدة وعاد عليكم منه عائدة قبلتموه ، و إلا فالرأى فيما رأيتموه ، ثم ذكر لهما مبلغا أرضاهما وبلغ به منتهى مناهما ، بحيث ربح درهمهما ثلاثة وأربعة ، وتضاعفت لهما مع قرب الملك المنفعة ، فقالا رضينا بما رسمت وأنعمت وقسمت .

فقال : لرفيقهما الأول إن رضيت بمثل ما رضى به صاحباك فتحول، والإ فخذ متاعك وتحول وشأنك وقماشك ، ونحن مع ذلك رياشك ، فقال: رضيت بما رضيا به وتلطف فى خطابه وجوابه فأمر فى الحال وأحضر المال ، ووزن الثمن وزاد ومَنَّ ، وألبسهم الخلع وأفضل فى المصطنع ، وأمر ببضائعهم فرفعت فى خزائنه ووضعت ، ثم أمر خواص بطائنه ، أن يدخلوا هولاء التجار إلى خزائنه .

فلما دخلوا إليها ووقع نظرهم عليها رأوا من نفائس الأموال والذخائر ، وأصناف الأقمشة والحرائر ، وأنواع الجواهر الملوكية ، وأجناس الأمتعة الكسروية ، وأعلاق ملوك الصين ، ومتحفات الملوك والسلاطين ما أبهت نواظرهم ، وأدهش أبصارهم وبصائرهم ، فنزهوا فى محاسنها أبصارهم، وأودعوا محاسن مخيلاتها أفكارهم ، ثم أتوا بهم إليه وأدخلوهم عليه .

---

(١) فاوضه وساومه .
(٢) ظلمه .

فقال : ماذا رأيتم فى الخزائن من نفائس البحـــار والمعادن ، فقالـوا : ما لا يصلح إلا فى خزائنـك ، و لا ينـثر علـى فِـرَق[1] ملـوك المشـارق والمغـارب إلا من مكـامن معـادنك ، فقـال : مـا بايعنـاكم فأرغبنـاكم ، ولا أكرمناكم إذ صحبناكم بناء على انا عـادمون ، ولا أنـا بقيمـة الأشياء وقدرها جاهلون ، وإنما فعلنا ذلك الإحسان وجبرنا منكم النقصان لعدة معان ، أحدها: أنكم أضيافنا وقد شملكم كرمنا وإنصافنا ، ثانيها : أن فضلنـا الفضيل يقتضـى إكرام النزيل ، ثالثها : إنكم مسـلمون والمسلمون عندنـا مكرمـون ، رابعهـا : أردنا اشتهار اسمنا وأن تذكر فى الأقطار طريقـة رسمنا ، خامسـها : أنـه إذا سمع بمعاملتنا التجار يقصدون بلادنا من الأمصار وسائر الآفاق والأقطـار ، فتعمر المسالك والدروب ويربح الطالب والمطلوب ، سادسـها : وهـو أعلاها وأحسنها وأقواها أنكم أملتمونا وافدين وأنا لا نخيب رجاء القاصدين .

ثم سرحهم شاكرين ولما سمعوا ورأوا ذاكرين ، ثم اقتضت الآراء فأمر الأمراء وأكابر بلاده ورؤساء أجناده ، أن يجهز كل منهم إلى الجهات الغربيـة والولايات الاسلامية من جهته أحدا من المسلمين ، ببضائع مـن أمتعـة الخطـا والصين فى صفـة التجـار ليتعـاملوا فـى هـذه الديـار ، وتتفتـح المسـالك علـى السالك وننقل إليهم بضـائع هـذه الممـالك ، وتكـثر المعـاملات وتتجـد الممـالك والولايات ؛ فامتثلوا مراسيمه وعدوها غنيمة ، ويجهز كل منهم من جهته مـن وثق بأمانته واعتمد على كفايته ، وأعطاه من النقود والأجنـاس مـا يصـير بـه من رؤساء الناس ، واجتمعوا قافلة وركبوا السابلة[2] نحو أربعمائـة وخمسين نفرا كلهم مسـلمون كُبَراً ، وكتـب لهـم مراسيم وجـائزات بإكرام نزلهـم فـى الدروب والمجازات ، ومعاملتهم بالكرامات ، وأن تهيأ لهم ولدوابهم الإقامات، ذهابا وإيابا حضورا وغيابا .

---

(١) الطائفة من الناس .

(٢) السابلة : الطريق المسلوكة . يقال : سبيل سابلة ، أى طريق مسلوكة .

ثم أرسل معهم إلى السلطان قطب الدين محمد بن تكش علاء الدين بن أرسلان بن محمد بن أنوشتكين ، وأنوشتكين هذا هو أتابك الملوك السلجوقية والسلطان قطب الدين هو الفائق من تلك الذرية ، رسالة عاطرة تستميل خاطره ، وتسيل من سحائب كرمه ومواطره ، وحسن الجوار ومراعاة جانب الجار ، وسلوك ما تنتظم به الأمور وتطمئن به الصدور : ويحصل به الأمن للصادر والوارد ، والرفاهية للقائم والقاعد ، وتنعقد به أسباب المحبة من الطرفين ، وأطناب المودة بين الجانبين ، وفتح باب المراسلات وكشف حجاب المعاملات ، وإن كانت الأديان مختلفة فلتكن القلوب مؤتلفة ، وشمول نظر الصدقات السلطانية وعواطف مراحمها الملوكية على القصاد الوافدين على أبواب مكارمها ، المستمطرين سحائب صدقاتها وديَمها ، بحيث تسنى مطالبهم وتهنى مآربهم أو كما قال وصدر منه السؤال .

[٩٥] **هذا وأما أخبار السلطان قطب الدين**(١): فإنه كان من أكبر الملوك والسلاطين ، تملك عراقى العرب والعجم ، وما فى ممالك خراسان من أمم واستولى على غالب الممالك بالقهر ، وإلى أقصى ولايات ما وراء النهر ، وجعل جرجانية خوارزم(٢) مأواه ، وتلقب لذلك خوارزمشاه ، ورفع ما بين ممالكه وبين ممالك جنكزخان من التتار المسلمين بقراجفتاى وعباد الأوثان ، واسترقهم قهرا وقسرا واستصحبهم جبرا وكسرا ، واستولد من تلك

---

(١) علاء الدين خوارزم شاه ، من ولد طاهر بن الحسين ، وصاحب خوارزم وبعض بلاد خراسان والرى وغيرهما من القديم المتسع ، وهو الذى قطع دولة السلاجقة ، كان عادلاً حسن السيرة والمعاشرة ، فقيهاً على مذهب أبى حنيفة ، توفى سنة (٥٩٦هـ) . البداية والنهاية (٧/٢٥) .

(٢) الجرجانية : اسم لقصبة إقليم خوارزم وهى مدينة عظيمة على شاطىء جيحون وأهل خوارزم يسمونها بلسانهم كركانج فعربت إلى الجرجانية . خربها التتار وقتلوا جميع من كان بها . معجم البلدان (٣٠٢٥) .

الطائفة المعتدين ولده السلطان جلال الدين[1] ، فبواسطة أنه صار له منهم ولد ، صاروا أقرب عساكره إليه وعليهم المعتمد ، فكانوا شعوبا وقبائل يخرج منهم سبعون ألف مقاتل ، ومنهم أيضا كانت أمه وأخواله ، وخيله ورجاله ، إلى أن خانوه وبذلوه ، وما صانوه واستدفع بهم طارق البلاء فكانوه[2] .

غريبة نادرة عجيبة :

كان هولاء التتار متاخمين بلاد أنزار[3] ، وهى حد ممالك السلطان وهى سد عظيم بين المسلمين وبين جنكزخان ، فغزاهم السلطان وأبادهم واستعبد كما ذُكر أجنادهم ، فارتفع السد من البين ، وانهدم الفاصل بين الجانبين ، واتصلت المملكتان كالمحبين ؛ أعنى مملكة السلطان ومملكة جنكزخان ، فسرت السرائر ، وابتهجت الضمائر ، ودقت فى ممالك السلطان قطب الدين البشائر ، وزينت الولايات بأنواع الذخائر ، وكان فى نيسابور من أكابر الصدور شخصان من العلماء ، فاجتمعا وأقاما العزاء ، فسئلا عن موجب هذا البكاء ، وإنما الناس فى فتوح وهناء ، فقالا : أنتم تعدون هذا السلم فتحا ، وتتصورون هذا الفساد صلحا ، وإنما هو مبدأ الخروج وتسليط الطوج ، وفتح سد يأجوج ومأجوج ، ونحن نقيم العزاء على الإسلام والمسلمين وما يحدث من هذا الفتح من الحيف على قواعد الدين ، وستعلمن نبأه بعد حين وأنشدا فأرشدا :

---

(١) جلال الدين بن علاء الدين خوارزم شاه ، كان التتار قهروا أباه حتى شردوه فى البلاد فمات فى بعض جزائر البحر ، ثم ساقوا وراء جلال الدين هذا حتى مزقوا عساكره شذر مذر حتى قُتل وحيداً على يد أحد الفلاحين من قرية بأرض ميافارقين سنة (٦٢٨هـ) البداية والنهاية (١٤٢/٧) .

(٢) خذلوه .

(٣) وهى مجموعة من البلاد منها نيسابور وجزء من بلاد ما وراء النهر .

وعَلِمْتُ أَنَّ فِرَاقَكُم لابد أَنْ يَجْرِى له دمْعِى دماً وكَذَا جَرَى

وكان السلطان قد دانت له البلاد واستولى على أهل اليفاع والوهاد ، وأباد ملوك العجم وتفرد بسياسة تلك الأمم ، وتخت ملكه مملكة خوارزم ، وقد صمم العزم بجزم ، وحمل الناس على نزع الخلافة من آل عباس ووضعها فى آل على ، وقد توجه إلى العراق بهذا القصد الجلى ، فوصل إلى حدود العراق وهو مجد على الاتفاق ، فوصل أولئك التجار إلى أنزار من صوب جنكزخان ، وبها من جهة السلطان نائب يدعى قايرخان ، فلما وصلوا إلى البلد أخبر بهم النائب الرصد ، فحبسهم عنده فى مكان وأرسل يستأمر فيهم السلطان ، وبشع العبارة وشنع السفارة ، وذكر أنهم جواسيس تستروا بالتجارة ، وأن معهم من الأموال ما يوازى الرمال ويوازن الجبال مصراع[1]، وما آفة الأخبار إلا رواتها .

فأمره بقتلهم وأخذ ما معهم وسلبهم ، ففى الحال أبادهم وسلبهم طارفهم وتلادهم ، وأرسل المال إلى السلطان ، وأوصله حسبما رسم به إلى الديوان ، فطرحوه على تجار بخارى[2] ، وسمرقند ، كما يطرح على مساكين دمشق القند[3]، واستخلصوا ثمنه بالظلم ، وزادوا عليهم فيه الغرم ، وكان سبب ذلك أن تاجرا عند قايرخان ، أراد أن لا يكون عند السلطان تاجر سواه ، فتبعه قايرخان لما أغواه ، فتعددت الأسباب وانفتح للشر أبواب ، وقالوا : شر أهر ذا ناب[4] ، فلم يفلت منهم سوى رجل واحد أنجاه الله من العدو والحاسد ، فاختفى واتصل إلى بلاده وأخبرهم بوقوع الأمر وفساده .

---

(١) المصراع : النصف .

(٢) بخارى : من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها . وهى مدينة قديمة . وهى مجاورة لسمرقند . معجم البلدان (١٥١٧) .

(٣) القند : جمع قنود كلمة فارسية وهو عسل قصب السكر إذا جمد .

(٤) شر أهر ذا ناب : مثل يضرب فى ظهور الشر وعلاماته ولمارائه .

فغضب جنكزخان وتحرك منه باعث العدوان ، ثم تثبت فى أمره وتلبث فى فكره ، وأرسل إلى السلطان رسالة فيها تهديد وبسالة ، وكان السلطان خوارزمشاه لما أبدى هذا الخطا وأنهاه ، طير مراسيمه إلى أطراف الممالك يأمرهم بالمحافظة على دربدات المسالك[1] ، ويحرض ولاة الأمور وأصحاب الأدراك فى المضايق والثغور ، والطلائع والأرصاد على منع القصاد ، وكف من يخرج من تركستان إلى صوب ممالك جنكزخان ، ثم أرسل من جهته جواسيس يختبر أحوال ذلك الإبليس ، وينظر أموره وأوضاعه ومقدار عسكره وأمرهم فى الطاعة ، وما قصده أن يفعل ليستعد له بحسب ما يعلم منه ويعمل .

فتوجهت جواسيس السلطان وطال فى غيبتهم الزمان ، وقطعوا الجبال والقفار ، وسلكوا المفاوز والأوعار ، حتى وصلوا إلى بلاده وفحصوا عن أمره واستعداده ، وخبروا أمر جنده وعتاده ، وأوضاع عسكره وتعداده ، فرجعوا بعد مدة مديدة وأزمان وأخبروا بما حققوه السلطان ، وأن عدد عساكره يفوت الإحصاء ، ويخ ج عن دائرة الاستقصاء وأنهم أطوع البرية للملك ، وأثبت جنانا من الأسد المنهمك ، وأصبر جندا على القتال كأن أمر الهزيمة عندهم محال ، وأنهم إذا وثبوا أو حاربوا ، أو سالبوا أو لاسبوا[2] ، أو رابضوا أو ضاربوا ، خابطوا ثم خاطبوا بقوله :

ونحنُ أُنَاسٌ لا تَوسُّطَ بيننا لَنَا الصَّدْرُ دونَ العَالَمينَ أو القَبْرُ

وأنهم لا يحتاجون فى الأسفار ولا عند مقاحمة الأخطار إلى كثير مؤنة ولا كبير معونة ، بل كل منهم ينهض باحتياجه واحتياج مركوبه إلى إلجامه وإسراجه ، ويستبد بعمل سلاحه وجميع ما يستعين به سفرا وحضرا فى صلحه وصلاحه ، ونطاحه وكفاحه ، وكذلك ملبوسه وزاده ، وسائر أهبته وعتاده .

---

(١) أى من يحرسون حدود المملكة وأبوابها والطرق المؤدية إليها .
(٢) لاسبوا : أى ضربوا بالسوط .

فندم خوارزمشاه على ما قدمت يداه ، من قتل أصحابه وفتح سد الثغر وبابه ، وأنى يجدى الندم وقد زلت القدم ، وتبدل الوجود بالعدم وغرق فى بحر الهموم ، وهَمَى عليه غمام الغموم[1] ، فشاور لما لقى الشهاب الخيوقى ، وهو فقيه فاضل ونبيه كامل ، عالم أجل كبير المحل ، له عنده محل خطير لا يخالفه فيما يشير ، فإن رأيه سديد وقوله وفعله رشيد ، فقال له : يا إمام قد تحرك على الإسلام عدو ألد الخصام ، بعساكر كالرمال ذوى صدمات كالجبال ، فما ترى فيما طرا[2] .

فقال : فى عساكرك كثرة ، وأنت ذو قوة ووفرة وزفر أقدامك له زفرة، فكاتب الأطراف واجمع عساكر الأكناف ، وادع أهل بيضة الإسلام إلى هذا النفير ؛ فإنه عام ، فإذا وفدوا عليك وتمثلوا بين يديك ، توجه بهم إلى نهر سيحون[3] ، واجعل ساحله من تلك الجنود مشحون ، واملأ بهم تلك المهامة والقفار ، وحصن ممالكك إلى حدود أنزار ، فإن أقبل العدو المخذول لم يصل إلا وهو من الكلال[4] محلول ، فإنه يأتى من بلاد بعيدة بجنود عديدة ، وقد أثر فيه النصب وأخذ منه التعب والوصب ، فتلاقيه على سيحون ، وهم كالون ونحن مستريحون .

فجمع بعد ذلك أمراءه ووزراءه وزعماءه ، وعرض عليهم ما جاءهم ، وطلب منهم آرائهم ، فلم يرتضوا رأى الشهاب لأمر يريده مسبب الأسباب ، وقالوا : بل نتركهم حتى يقطعوا الأوعار والمضايق ، ويتورطوا فى بلادنا

---

(١) الغموم ، مفردها غم : الحزن والهم .

(٢) حلّ فجأة .

(٣) نهر سيحون : نهر فى جنوب غرب الإتحاد السوفيتى السابق ينبع من جبال يقان شان. ويصب فى بحيرة آرال . معجم البلدان (٦٨٤٨) .

(٤) التعب والإعياء .

بالعوايق ، فتزداد مشقتهم وتطول فى المسير شقتهم ، لاسيما وهم بأرضنا جاهلون وعن مداخلها ومخارجها ذاهلون ، فإذا حصلوا فى قبضتنا كان أمكن لنهضتنا ، فنضيق عليهم واسع رحابها وأهل مكة أخبر بشعابها[1] .

وذهل أولئك الجمع عما رآه الفقهاء ؛ وهو أن الدفع أولى من الرفع ، وبينما هم فى المشاورة والمراودة ، ورد قاصد جنكزخان برسالة المناكدة ، وفيها من التشنيع والتقريع والتهديد والتبشيع العجب العجاب ، وما يشيب الغراب[2] ، فمن جملة تشنيعاته ومضمون تهويلاته ما معناه فى فحواه ، كيف تجرأتم على أصحابى ورجالى ، وأخذتم تجارتى ومالى ، وهل ورد فى دينكم أو جاز فى اعتقادكم ويقينكم ، أن تريقوا دم الأبرياء ، أو تستحلوا أموال الأتقياء ، أو تعادوا من لا عاداكم ، وتكدروا عيش من صادقكم وصافاكم، أتحركوا الفتن النائمة ، أو تنهضوا الشرور الجاثمة ، أو ما جاءكم عن نبيكم وسريكم ، وعليكم أن تمنعوا عن السفاهة غويكم ، وعن ظلم الضعيف قويكم، أو ما أخبركم مخبروكم وبلغكم عنه مرشدوكم ونباكم محدثوكم :« اتركوا الترك ما تركوكم»[3] . وكيف تؤذون الجار وتسيئون الجوار ، ونبيكم قد أوصى به مع أنكم ما ذقتم طعم شهده أو صابه[4] ، ولا بلوتم شدائد أوصافه وأوصابه[5] ، ألا وإن الفتنة نائمة فلا توقظوها .

---

(١) أهل مكة أخبر بشعابها : مثل يضرب للدلالة على أن أهل البلد هم أعرف الناس بدروبها ومسالكها .

(٢) وما يشيب الغراب : مثل يضرب على شدة هول الشيء .

(٣) جزء من حديث أخرجه أبو داود : كتاب الملاحم (١١) وأخرجه النسائى : كتاب الجهاد ، باب غزوة الترك والحبشة (٤٣/٦) من طريق خمرة بن ربيعة .

(٤) مُرُّه وسيِّئُهُ .

(٥) الأوصاب ، مفردها وصب : المرض .

وهذه وصايا إليكم فعوها واحفظوها ، وتلافوا هذا التلف ، واستدركوا ما سلف قبل أن ينهض داعى الانتقام ، ويتحرك من الفتن حامى الاضطرام ، ويقوم سوق الفتن ، ويظهر من الشر ما بطن ، ويموج بحر البلاء ، ويروج وينفتح عليكم سد يأجوج ومأجوج ، وسينصر الله المظلوم والانتقام من الظالم أمر معلوم ، ولابد أن الخالق القديم والحاكم الحكيم ؛ يظهر أسرار ربوبيته وآثار عدله فى بريته ، فإن به الحول والقوة ومنه النصرة مرجوة ، فلترون من جزاء أفعالكم العجب ، ولينساب عليكم يأجوج ومأجوج من كل حدب .

وكان اللعين جنكزخان قد مشى على تركستان ، وأخذ منها عنوة كاشغر[1] وبلاساغون[2] ، وصارتا فى حوز ذلك الملعون ، وكانتا فى يد كوجلك خان ابن أونك خان ؛ المار ذكره فى أول القصة ، لما قتله جنكزخان وقصَّه وهرب ولده كوجلك خان المغبون ، واستقر فى شاغر وبلا ساغون، إلى أن مشت العساكر عليه ، وأخذت تلك الأماكن من يديه .

فلما وصل هذا الخطاب إلى ذلك الأسد الوثاب[3]، أمر بمقدم القصاد ورئيس أولئك الوراد ، فضربت رقبته وبمن بقى فحلقت لحيته ، وسخمت بالسواد حليته ، ثم رد الجواب بأبشع خطاب ومن فحواه وبارد ما حواه : إنى سائر إليك وهاجم عليك بجنود الإسلام وأسود الآكام ، وكل بطل ضرغام، ولو بلغت مطلع الشمس ، فحلك فى قعر الرمس وجاعلك كذاهب أمس ، فتيقن ذلك واعلم أنك لا محالة هالك ، ورد قصاده على عقبهم وقصد التوجه فى ذنبهم .

---

(١) كاشغر : مدينة من بلاد الصين عامرة كثيرة الخيرات فيها متاجر وبضائع وهى وسط بلاد الترك وأهلها مسلمون . معجم البلدان (١٠٠٧٣) .

(٢) بلا ساغون : بلد عظيم فى ثغور الترك وراء نهر سيحون قريب كاشغر . معجم البلدان (٢٠٧٥) .

(٣) الغاضب .

فتجهز وصار بعسكر جرار ، إلى صوب التتار وأوصل السير وسابق الطير ، وأراد أن يسبق الخبر ، ويكبس التتر ويريهم عين العلة قبل الأثر ، فألوى من العراق ، وسار وساق فقطع ممالك خراسان ، وولايات ما وراء النهر وتركستان ، وهجم بذلك البحر الزخار فى تلك المهامة والقفار ، فوصل إلى حشم فى بيوت وهم آمنون فى سكون وسكوت ، ليس فيهم غير نساء وصبيان ومواش وبعران ، رجالهم غائبة وأمورهم بواسطة الأمن سائبة ، وكانت رجالهم توجهت لأخذ الثار من بعض التتار بواسطة عدوان وقع بينهم وبين كوجلك خان ، فقاتلوهم وكسروهم ونهبوا أموالهم وهصروهم[1] ، ففى غيبتهم وصل السلطان إلى بيوتهم ، وفى أمنهم وسكوتهم ، وليس فيهم إلا الحريم والأطفال والمواشى والأثقال لا يؤبه إليهم ، ولا يعول عليهم . فاستولى عليهم ونهبهم وسلبهم عيشهم وسلبهم ، وأمر العساكر فنهبوهم وأسروهم وفرقوهم وكسروهم وهم الجم الغفير والعدد الكثير والمال الغزير.

ورجع السلطان من فوره ، وابتدأ فى حوره بعد كوره[2] ، وتصور أنه أعنى وأشكى ، وأنه أضحك وليا وعدوا أبكى ، فما هو إلا وضع على القرح كية[3] وداس ذنب الحية[4] .

ثم رجع التتار ورأوا ما حل بأهلهم من بوار ، وأنهم أخرجوا من ديارهم وأولادهم ، ونكبوا فى طريقهم وبلادهم ، وأن نساءهم أسرت وصفقتهم خسرت ، فما وفت نصرتهم بكسرتهم ولا قامت فرحتهم بحسرتهم ، التهبوا واضطربوا واصطلموا واصطدموا ، وأخذتهم الحمية ، وعصبتهم

---

(١) أى قتلوهم شر قتلة .

(٢) فى حوره بعد كوره : أى فى نقصانه بعد زيادته ؛ وهو مثل يضرب فى تغير الأحوال من الزيادة إلى النقصان .

(٣) أى كوى جرحه وأشعل ألمه والمراد أنه أشعل الحرب بينه وبين التتار .

(٤) ذنب الحية : طرفها ، والمقصود بالحية التتار .

العصبية ، وتنادوا يا للغارات وطلب الثارات ، وتناجى منهم حماة الحقايق وكماة[1] المضايق ، وتتبعوا فى الحال آثار الرجال ، من غير إهمال ولا إمهال ، وسلكوا الآثار لأخذ الثار ، وأكبوا كالبرق الخاطف ، وزعقوا كالرعد القاصف ، واندفعوا كالريح العاصف ، واندفقوا كالسهم الناقف ، ودهموا كالليل المدرك وهجموا كالسيل المهلك ، فأدركوا عساكره بشرور ثائرة ، ومراجل صدور[2] بالضغائن فائرة ، فلم يشعروا إلا العدو المضرم غشيهم كالقضاء المبرم ، فألوت عساكره ، وقابلت واستعدت وقاتلت ، والتفت الرجال بالرجال وضاقت ميادين المجال ، واستمرت ضروب الحرب بينهم سجال ، وتطاولت سهام الموت لقصر الآجال ، وتهللت ثنايا المنايا لبكاء السيوف ، وتبسمت ثغور الرزايا لفتوح الحتوف[3] ، واستمرت ديم السهام من غمام القتام على رياض الصدور تهمى[4] ، ولوامع بروق السيوف على قمم تلك الصفوف بعد الوابل الوسمى[5] بالصواعق ترمى ، ثم انتقلوا من معاشقة المراشقة ، إلى مراشقة المعانقة ، ومن مكالمة المضاربة إلى ملاكمة الملابية[6] ، ومن مخادعة المقارعة إلى مسارعة المصارعة .

وامتدت بهم الحال فى هذا القتال والجدال ثلاثة أيام مع الليال ، لا يسأمون الطعن والضرب ، ولا يملون مباشرة الحراب والحرب ، إلى أن جرى من الدماء طوفان ، وكاد يظهر سر كل من عليها فان ، كل ذلك وكاتب البيض والسمر ، يستوفى من أقلام الخط فى صحائف الصفائح مستوردات

---

(١) كماة ، مفردها كمى : الفارس المسلح .

(٢) أى صدورهم تغلى وتفور بالحقد والبغض .

(٣) الحتوف ، مفردها حتف : الموت .

(٤) أى تضيق .

(٥) الوسمى : أول المطر .

(٦) الملابية : أخذ بتلابيبه أى صارعه وقاتله .

العمر ، ولم يسمع بمثل هذا القتال ولا بنظير هذا الضراب والنضال ، فى سالف الأزمنة والأعصر الخوال ، وما أمكن تولى إحدى الطائفتين ، ولا نكوص جهة من الجهتين .

وأما طائفة المسلمين فلحمية الدين ، ولو ولوا الأدبار لما أبقت التتار ، لبعد الديار وصعوبة القفار ، منهم نافخ نار ، وأما الكفار فللغيرة على ذوات الأستار واستخلاص الأطفال والصِّغار من قيد الذل والصَّغَار ورق الإسار ، فصارت الخضراء غبراء والغبراء حمراء ، والصحرا بحرا والقتلى تلا ، والجرحى ترحى[1] ، ولم يثبطهم عن استيفاء القتال غير انحلال الأعضاء والكلال ، فانفصلوا وما انفصلوا وانقطعوا بعد ما اتصلوا ، وحلوا بعد ما كلوا، وتراجع كل عن صاحبه بعد ذوبان قلبه وقالبه ، واستفراغ جهده بما وصلت إليه غاية كده .

ثم استوفى ناظر القضاء ما أورده عامل الفناء من سهم المنون إلى ديوان برزخ إلى يوم يبعثون ، من أرواح الشهداء الأبرار ، وأنفس الأشقياء الكفار الوارد من تلك المعركة الساكن من حركات هاتيك التهلكة ، فكان من المسلمين عشرون ألفا ، ومن الكفار كذا وكذا ضعفا ، غير أنه لم يمكن حصرهم ولم يعرف قدرهم ، فلما كانت الليلة الرابعة وهى الليلة الفارقة القاطعة أوقد كل من الفريقين فى منزله النار ، وأكثر من القبائل فى المنازل والآثار وتركها وسار ، فوصل السلطان من بلاد تركستان ، وقطع سيحون نهر خجند[2] ، ووصل إلى بخارى وسمرقند ، وشرع فى تحصين البلاد والقلاع والاحتفاظ بمدن الممالك عن الضياع ، وقد سكن الهم فؤاده ، ونهب

---

(١) الترح : الحزن والهم .

(٢) نهر خجند : يقع فى وسط مدينة خجندة ، هى بلدة مشهورة بما وراء النهر على شاطىء سيحون . معجم البلدان (٤١٣٨) .

القلق والأرق رقاده ، وعلم المسلمون أنه خان وأنه لا طاقة لهم بالتتار ، فخافوا حلول البوار ونزول الدمار ، وتيقنوا خراب الديار ، لأن السلطان عاجز ولابد من قدوم بلاء ناجز .

وقالوا : إذا كان هذا الخور من شرذمة قليلة من التتر فى طرف من أطراف بلاده ، لا فيهم أحد معتبر من أجناده ، ولا رئيس يشار إليه من أولاده ، ولا درى ولا علم بما جرى، فكيف إذا دهم بطامته الكبرى وأحشاد جيوشه العظمى فترك خوارزمشاه ببخارى عشرين ألف مقاتل ، وفى سمرقند خمسين ألف مناضل ، وقرر معهم أنه سيجمع الجنود ويستجيش أبطال المسلمين ويعود ، وتوجه بثبات عزم وإضاعة حزم إلى سرير ملكه خوارزم، ثم انتقل إلى خراسان وخيم بضواحى بلخ فى مكان ، وأقام رخى البال كأن الشىء ما كان ، ثم لازال يضمحل ويذوب ويحل به ما يحله من نوائب الخطوب ، حتى انتقل إلى جوار الرحمن فى أطراف طبرستان[1] ، وفى سنة سبع عشرة وستمائة وكانت ولايته فى العشرين من شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة .

وكان ملكا عظيما وسلطانا جسيما ذا صولة قاهرة ودولة باهرة ، وجولة أرقدت الملوك بالساهرة ، فاضلا فقيها عالما نبيها ، اضمحل بأدنى حركة ملكه ، وغرق فى بحر الفناء بعد الطغيان فلكه ، وركن إلى الخطا فوقع فيه ، وخانته عساكره ومخالوه[2] ودود الخل منه وفيه ، وكان فى خزائنه عشرة آلاف ألف دينار ، ومن أجناس الأقمشة والأمتعة والأسلحة ما لا يحصيه إلا الواحد القهار ، وكان فيها ألف حمل من القماش الأطلس[3]،

---

(١) طبرستان : بلاد واسعة كثيرة المياه ومتهدلة الأشجار كثيرة الفواكه . معجم البلدان (٧٨٤٩) .

(٢) أصدقائه وأقاربه .

(٣) الأطلس : ثوب من الحرير منسوج .

وأضعاف ذلك من نفيس النفائس وأنفس ، ومن الخيل المسومة عشرون ألف جنيب ، ومن المماليك الملوك عشرة آلاف كل له فى دار الملك ربع خصيب، وأوفر حظ ونصيب ، فما أفاد ذلك ذرة ؛ بل نبشوا بعد موته قبره ، وقطعوا رأسه وفجعوا به ناسه ، فسبحان من لا يزول سلطانه ، وعز وعلا من لا يذل شانه :

فَمَا كَفَّ ذو كفٍّ له رائِدُ الرَّدى ولا مالَ بالأَمْوال عَنْه حِمَامُه
ولا مُلْكٌ كَلاَ ولا مُلْكٌ حَمَى حَمَى مَلِكَه لمَا عَرَاه انْهِدَامُه

وبسط المقول فيه شرح يطول .

وأما أمر الطاغية صاحب الفئة الباغية ، جنكزخان ، لما وصل قصاده من عند السلطان بعد الفناء والشدة ، لحاهم محلوقة ووجوههم مسودة ، وقد قتل رئيسهم وخلا من نقد مرادهم كيسهم ، ذهب حفاظه والتهب شواظه ، وطمت بحار كفره وتلاطمت ، وتزعزعت أطواد شركه وتصادمت ، وبينا هو يرغى ويزبد ، ويقوم من غضبه ويقعد ، إذ جاءه الخبر الثالث وهو شر الحوادث ، إذ فيه خبر من قتل من الكفار ، وانتقل من دار الخسار إلى دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار ، فأعمل فى قلبه نصله ؛ وكان أولا قد زاد على قرحه قرح مثله ، ثم كان خبر هذا القرح ملحا مذرورا(١) على جرح ، فقامت قيامته وتعوجت بالحزن قامته ، وود لو أحرق الكون بأنفاسه ، وهدم أساس المكان بفأس باسه .

ثم تروى وافتكر وتهوى من حر هذا الشرر ، ثم قصد مذهب الاعتزال وانزوى عن جماعته فى مكان خال ، ودخل إلى مكان خراب وعفر وجهه فى التراب ، وتضرع إلى الله الحليم وقال : يا خالق يا قديم أنا أردت أن أعمر

---

(١) مذروراً : منثراً .

بلادك وأنعش عبادك ، فظلمهم يا إله عبدك خوارزمشاه ، وتعدى على وكـرر الإساءة إلى فانتصر لى منه وانتقم ، فإنك جبر من كسر وعون من ظلم ، واستمر على هذه الحال ثلاثة أيام وليـال ، لا يـأكل ولا يشرب ولا يفتر عن التضرع والطلب ، يمرغ رأسه ووجهه فى الثرى ، ويقصـد فيما يرومه رب الورى ، وقد قيل :

تَضَـرَّعَ جنكزخـان للّـه سـاعةً   وأخلَصَ فيما رَامَه وهـو مُشْرِكُ
فَمَا خَابَ فيمـا رَامَـه مِنْ فَسَـادِه   ومَا زَالَ يَعْتُو فى الأَنَام ويَسْفِـكُ
فَمَا بَـالَ مَنْ للّهِ طـولَ حَيَاتِـهِ   يُوجَدْ بالإخْلاَصِ هَلْ هُـوَ يَهْلَـكُ

ثم نهض نهضةً أنام فيها الأنام ، وقام قومة أقام بها ساعات القيام ، فَتَوَّجه من مشركى التتار وعساكر الكفار بالبحار الطامية والأمطـار الهامية ، وجبال النيران الحامية ، فى شهور سنة خمس عشرة وستمية ، ومشوا على ممالك الإسلام وساروا علـى بسيط العالم سير الغمام ، وأرادوا إطفاء نـور الإيمان من إشراكهم بظلام ، فوصلوا إلـى البـلاد وهـى جنـة المرتـاد ، آمنـة مطمئنة ساكنة مستكنة ، وليس لها مـانع ولا ممـانع ، ولا لهم عنها دافع ولا مدافع ، ولا بها حـام ولا محـام ، ولا سام ولا مسام ، فأخنوا على جند[1] وقراها ، وولايتها وما والاها ، رابع صفر عام ستة عشر ، وأظهروا فيها علامات الحشر فأدهشوا وهلها وسبكوا أهلها[2] ، ودكوا جبلها ، وملؤا بجبال القتلى سهلها ، فقتلوا الخاص والعام ، ومدوا إلى ذخائرها النهب العام ، فأراح بها رحله وخيله وأحاط بها ثبوره وويله ، واستمروا فى نهبها ست عشرة ليلة ثم تنقلـوا عن جند ، إلى ولايات إندكـان[3] ، وفنـاكث ، وخجنـد ، فأخذوها

---

(١) أى أهلكوا جنودها .
(٢) أى فتكوا بهم .
(٣) إندكان : من قرى فرغانة وأيضاً من قرى سرخس معجم البلدان (١٠٤٩) .

وقتلوا وفعلوا كما كانوا فعلوا ، ثم إلى بلدة مرغينان[1] ، وكانت دار ملك إيلك خان ، ثم إلى أطراف تركستان ، ومنها سيرام[2] وتاش كيد وباقى البلدان ، ثم إلى تسف ، وأنزار ، وسغناق ، وما من أمهات البلاد فى تلك الآفاق:

فَمَشَوْا على سَهْل البلادِ ووعْرِهَا مَشْيَ الجَرادِ على القَصِيرِ الأخضر
فَكَأَنَّهُم مُوسِى على شَعْر مَشَتْ أو مِنْجَل فَوقَ الحَصِيدِ الأصْفَر
أَوْ شُعْلة نار الهوا فَتَعَلَّقَتْ فَوْقَ الصَّعيدِ على الهَشِيْم الأَغْبَرِ

فكل من أطاعهم وقصد اتباعهم ؛ صار من جلدتهم ودخل فى عدتهم ، ومن عصى أو توقف أو خالف أو تخلف ، سقوه كأس الدمار وأحلوه وقومه دار البوار ، وأسروا حريمه وأولاده ، ونهبوا طارفه وتلاده ، ثم إن تلك الدواهى المصمية[3] فى يوم الثلاثاء رابع المحرم سنة سبع عشرة وستمية وصلوا إلى بخارى بلدة فضلها لا يجارى ، قبة الإيمان وكرسى ملوك بنى سامان[4] ، مجمع العلماء والعباد والصلحاء والزهاد ، ومنبع المحققين من الفقهاء الأمجاد والمدققين من النبهاء والأنجاد ، وفيها من الأكابر والأشراف وأوساط الأماثل والأطراف ، الجم الغفير والطم الكثير .

فلما رأى العساكر السلطانية والجيوش الخوارزمشاهية ، الذين كان أرصدهم السلطان لحفظ البلدة من طوارق الحدثان ، وهم عشرون ألفا ، أن البلاء زحف إليهم زحفا ، وإن كسرتهم منهم لا تخفى وإن سيل الويل حطم ،

---

(١) مرغينان : بلدة بما وراء النهر من أشهر البلاد من نواحى فرغانة . معجم البلدان (١١١٤٢) .

(٢) سيرام : من جزر أندونيسيا .

(٣) الشديدة المهلكة .

(٤) سامان : من محال أصبهان ، وهى قرية بنواحى سمرقند . إليها ينسب ملوك بنى سامان بما وراء النهر . معجم البلدان (٦١٩٩) .

وموج بحر الدواهى التطم ، ومن لم يدرك من الغرق نفسه ارتطم ، شمروا الذيل وخرجوا تحت الليل وقصدوا جيحان[1] والعبور إلى خراسان ، ومقدمهم من أمراء السلطان كور خان ، وسونج خان ، وحميد النورى ، وكوحلى خان.

فبينما هم على نهر جيحون قاصدين العبور ، صادفتهم طلائع جنكزخان الكفور ، فوضعوا السلاح فيهم ومحوهم عن بكرة أبيهم ، فما أبقوا منهم عينا ولا أثرا ، ولا سمع لهم أحد خبرا ، فوهى أمر البلد إذ لم يبق لهم مدد ، فطلبوا الأمان وأرسلوا لذلك القاضى بدر الدين بن قاضى خان ، فأجابهم إلى ذلك ، وأناب فاطمأنوا وفتحوا الأبواب ، فدخلوا المدينة يرفلون وهم من كل حدب ينسلون ، فعصى بقية العسكر فى القلعة وتصوروا أن يكون لهم منه منعة ، ففى الحال أمر الرجال بطم الخندق[2] بكل ما وجدوا جل أو دق ، فأتوا بنفائس الأقمشة والذخائر المدهشة ، والكتب والربعات ، والمصاحف الشريفة والختمات ، وطرحوها فى الخندق ومشى العسكر عليها وتسلق ، ونقبوا النقوب وانفذوا الثقوب ، وكان قد نادى بالأمان للقاصى والدان ، فعجزت القلعة وذهب ما بها من منعة ، وكان فيها فئة نحو من أربعمائة ، فباشروا الحرب دوما نحو اثنى عشر يوما ، فأخذوا عنوة بالأثقاب وفتح لهم من كل جهة باب ، فقتلوا من بها عن آخرهم ، واستولوا على باطنهم وظاهرهم .

ثم مدوا أيديهم إلى المخدرات وفجروا ظاهرا بالمستورات ، وجعل الناس ينظرون ويبكون ، وهم يفتكون وينكبون لا يستطيعون دفعا ولا يملكون ضرا ولا نفعا ، فاجتمع من أئمة الدين ومن أعلام العلماء المهتدين ، ومن لم يرض

---

(١) جيحان : نهر المصيصة بالثغر الشامى ومخرجه من بلاد الروم ومصبه فى بحر الشام . معجم البلدان (٣٣٩١) .

(٢) أى أمرهم أن يملؤه عن آخره .

بعمل المفسدين جماعة غاروا وثاروا وفاروا ، وانضموا إلى العلامة القاضى صدر الدين قاضيخان ، وأولاده السادة القادة الأعيان، والحاكم الشهيد الإمام العالم السعيد والإمام ركن الدين إمام زاده واختاروا الموت على الشهادة ، فحملوا على الفئة الطاغية والطائفة الكافرة الباغية ، وقاتلوا حتى قتلوا وإلى جوار الله مقبلين انتقلوا ، فاستشهدوا عن آخرهم ولحق أصاغرهم بأكابرهم .

ودخل جنكزخان إلى المدينة وطاف بها على هينة وسكينة حتى انتهى إلى باب الجامع ، مكان نزه وموضع رائع ، ومحل شريف ومعبد واسع ، ولم يكن لذلك البلد الكبير والجم الغفير والجمع الكثير ، والمصر الواسع من الجوامع ، سوى جامع واحد يجمع الصادر والوارد ، ويسع ما شاء الله من الأمم وهذا على مذهب الإمام الأعظم[1]، وهكذا كل أمصار الحنفية فى الممالك الشرقية والممالك الهندية ، وغالب البلاد التركية فقال جنكزخان: هذا بيت السلطان ، فقالوا : بيت الرحمن ومأوى عبادة العباد ، والعلماء والزهاد وذوى الطاعة والاجتهاد ، فقال : إن أولى ما أقمنا أفراحنا فى بيت من خلق أرواحنا ورزق أشباحنا .

ثم ألوى إليه وأقبل عليه ونزل عن دابته ، ودخل الجامع مع جماعته ثم دعا بأمرائه، وكبراء جنده وزعمائه ، واستدعى الخمور والطبول والزمور ، وهش إلى الكفار وعظمهم ، وبش فرحا واحترمهم ، فسجدوا له منهم الملوك وضربوا له الجنوك ، وعرفوا حقه ورعوا ، ورفعوا بالثناء صوتهم ودعوا ، فأذن لهم بالجلوس وأن تدار عليهم الكؤس ، فجلس كل فى مكانه بين أضرابه وإخوانه ، وقام بعض فى مقامه فى موقف حده واحتشامه ، فتصدر فى مجالس العلم والأذكار ومحاريب الصلاة الكفرة الفجار ، ورؤوس المشركين من المغل والتتار ، واستبدلت محافل العلم والتدريس ، بجحافل الشرك والتنجيس.

---

(١) الإمام الأعظم ؛ أبو حنيفة النعمان بن ثابت إمام المذهب الحنفى ، تقدمت ترجمته .

ثم أحضروا العلماء والأشراف ، والكبراء ، وسادات الأنام ، ورؤساء الخواص والعوام ؛ وأنزلوا بهم الثبور والويل ، واحتفظوا بهم واستحفظوهم الخيل ، وصارت الناس حيارى سكارى وما هم بسكارى ، وأخذتهم بهتة إذ أتاهم العذاب بغتة ، ولم يكن بين رحيل السلطان وبين هجوم هذا الطوفان غير خمسة أشهر وأيام ، ساروا فيها سير الغمام وهجموا على العالم هجوم الظلام ، وكأن الناس كانوا نياما ورأوا فى منامهم أحلاما ، فلم يوقظهم من شذا الرقاد سوى إبراق البلايا بالأرعاد ، فانسد عليهم طريق الخلاص وخانهم المدد فى شدة الاقتناص ، وتنادوا ولات حين مناص ، إذ فارقهم العسكر وهم فى حال المضطر .

وكان من جملة أولئك الأعيان شخص ولى يدعى السيد الشريف جلال الدين على بن حسن الزيدى ، وهو المقدم والمقتدى ، والمسلك إلى طريق الهدى ، وأعلى سادات ما وراء النهر ، ولدوحة ساداتها بمنزلة الثمر والزهر ، قد قبض عليه وربطوا إلى عنقه يديه ، ثم استنظروه مراكيبهم ، وأنشبوا فيه مخاليبهم ، وهو واقف بباب الجامع فى هيئة الذليل الخاضع ، فرأى الإمام الهمام ، البحر الطام ، علم العلماء الأعلام ، أفضل علماء عصره ، وأنبل فقهاء دهره ، الشيخ ركن الدين ابن الإمام ، بوّأهما الله تعالى دار السلام وهو فى مثل حاله ، متيسر بل بسر بال نكاله .

فقال : أيها الإمام المفضال ما هذه الأحوال ، ثم أنشد معنى هذا المقال:

أرى حالَةَ بَدَتْ لِسَانى فَلَيْس لى ... طَرِيقٌ إلى أنِّى أفُوه بلَفْظَةِ
أعضُّ لها كَفِّى وامْعُكُ مُقْلَتِى ... أفِى النَّوْم هَذَا أمْ أرَاه بيَقْظَةِ

فأجاب الإمام : ما هذا محل الكلام ، كن عبد الإرادة واتبع ما أراده .

واستمروا يشربون الخمور على أصوات الزمور ، ويضربون الطبول ، ويتراقصون رقص التتار والمغول ، ثم صعد المنبر ابن جنكزخان الأكبر

واسمه توشى خان ، وتكلم بكفر وكفران ، ثم غنى ورقص ، ودعا لأبيه ونكص ، ثم صعد بعده أبوه وتكلم بكلام سمعوه ، ودعا بالخمر وشرب ، ثم غنى وطرب ، ثم قال : أيها الرجال إن خيلنا هى رأس المال ، وقد رعيتم الوهد والبقاع ، وحلقتم شعور الكلا من قمم البقاع ، وقد شبعتم فلا تنسوا الجياع ، ألا فأشبعوا خيلكم ولا تحرموها نيلكم ، وحيث رعيتم الخضيم[1] فابغوا لها القضيم[2] ، وامتثلوا أمر سلطانكم تحظوا منه بأمانكم .

فنهضوا قياما وامتثلوا مرسومه مراما ، وتهارجوا كالحمير ، وابتدروا طلب القمح والشعير ، ثم طغى وتكبر ، وبغى وتجبر ، ونزل عن المنبر فلم يكن بأسرع من إتيانهم بالحبوب والقضيم المطلوب ، وأدخلوا الخيل إلى الجامع ، وطلبوا لها مرابط ومواضع ، ثم أفرغوا خزائن المصاحف والختمات وظروف الكتب وأوعية الرُبْعات[3] ، وصبوا فيها الشعير ، وأطعموا فيها الخيل والبغال والحمير ، فتبددت الكتب المنيفة ، والمصاحف الشريفة ، والربعات المعظمة والختمات المكرمة ، تحت السنابك والحوافر ، ومواطئ أقدام كل كافر ، وصارت أبحر القاذورات والخمور على تلك النفائس والذخائر تمور .

ثم أنه خرج من البلد وأمر أن لا يترك فى البلد أحد ، بل يخرجون إلى المصلى وولى حفظهم من كفر وتولى ، ومن تأخر قتلوه وبتكوه وبتلوه ، فخرجوا كالجراد وانتشروا على الوهاد ، واجتمعوا فى المصلى ، ثم على المنبر تعلى وخطب خطبة تركية كافرية مشركية ، منها : ركبتم عظائم وأتيتم مآثم وجرائم ، فتقدم ربكم إليكم أن سلطنى عليكم ، وهذه الأوزار إنما جناها

---

(١) الأرض الكثيرة النبت .

(٢) شعير الدابة .

(٣) الربعات ، مفردها رباعة : المنازل .

منكم الكبار ؛ فلأجل هذا عم البلاء ، وذهب بجريمة الكبراء الأصاغر والضعفاء ، ثم ضبط أسماء التجار ، واستخلص ما عندهم من درهم ودينار ، وقال : هذا ثمن مالى من نقد وأعيان الذى كان منحكموه السلطان .

فلما استخلص الأموال ، أمر بقتل الرجال وأسر النساء والأطفال والنهب العام لسائر الأغنام ، ومن أخذ شيئاً فهو له لا يقطع أحد سبله ، ثم أمر بهدم البلد والإحراق ، وإعدام عينها على الإطلاق فمهما قال : فعلوه وكل ما رسم به امتثلوه ، فساروا بالبلد الأرض ، واستوفوا أعمار أهلها بالفرض والقرض ، فلم يبق منهم ديار ، ولم ينج من تلك النار العظيمة نافخ نار ، وقيل : إنه نجا من هذه الواقعة رجل باقعة[1] ، فوصل إلى خراسان فسألوه عن هذا الشان كيف كان فقال لهم بذلك اللسان ما صورته :

آمدند وكندند وسوختند وكشتند وبردند ورفتند

يعنى : هجموا وهدموا ، وأحرقوا وأرهقوا ، ونهبوا وذهبوا . فقيل : لم يوجد فى الفارسى فى هذا المعنى أحسن من هذه الألفاظ ولا أرصن ، ولا أوجز ولا أمتن .

ثم أمر الجند بالتوجه إلى سمرقند ، فتوجهوا بالأثقال من الأموال، والأسرى من النساء والأطفال ، مشاه حفاة أذلاء عراة ، فلم يتوقف كل أعتمى أعقف[2] وكافر أغلف فى ضرب رقبة من أعيا أو توقف ، فوصلوا إليها وأخنوا عليها ، وفيها من العساكر الأكفا مائة ألف وعشرون ألفا ، سبعون من أهل البلد وخمسون من المرصدين للمدد ، فتجهز عسكر البلد للقا وخرجوا من البلد للملتقى ، فكمن لهم التتار من اليمين واليسار ، فى رواب وتلال

---

(١) داهية .

(٢) اعتمى : أعمى . والأعقف : الأعرج .

تسمى بالأحصار ، فناوشهم من عساكر الكفار شرذمة ، ثم ولت أمامهم منهزمة ، فركب البلدين أعقابهم وداسوا أذنابهم إلى أن أبعدوا عن البلد ، وانقطع عن البلديين المدد ، خرج الكمين من خلفهم لقطع رجل مددهم وكفهم، ورجع عليهم الفارون ، وأحاط بهم الغارون ، وتلاحق بهم عساكر لا أول لهم ولا آخر ، فلم يفلت منهم واحد ولا صدر عن حياض تلك الملحمة وارد .

فلما شاهد العساكر الخوارزمشاهية ما نزل بالجنود البلدية من داهية ورزية لم يسعهم إلا الترامى عليهم والانحياز إليهم ، فداروا وداروا والنبيب من دارى ؛ فوقوا بذلك أنفسهم وأهليهم نارا ، فلم يركنوا إليهم ولا اعتمدوا عليهم فرأوا مصلحتهم فى سلبهم أسلحتهم ، فطلبوا منهم عدتهم ، ثم فرقوا عدتهم ، كما فعل تيمور الغدار فى بلاد الروم بالتتار ، عند كسر ذلك الخوّان فى سنة خمس وثمانمائة بايزيد بن عثمان ، فلم يبق لأهل البلد معين ولا مدد، فاستسلموا للقضا ، وجروا طوعا وكرها فى ميادين الرضا ، فأحل بهم بوارا وأنزل دمارا ، ففعل بسمرقند وأهلها ما فعل ببخارى ودور أسوارها ، بدلالة آثارها ، من الفراسخ اثنا عشر لا يمترى فى ذلك اثنان من البشر .

فنفس ما فى ذلك من الخلائق والأمم فالكل يراهم سيف القلم ، كما يبرى النسيف القلم ، ثم قوى العزم وسدد الحزم ، وجهز طائفة من العساكر إلى خوارزم ، مع ولديه أحدهما المدعو : بجفتاى والآخر المسمى : باوكتاى ، وهى تحت خوارزمشاه ، وفيها من الأمم ما لا يعلمه إلا الله ، معدن الأفاضل ومقطن الأماثل محط رحال أهل التحقيق ، ومقصد رجال الفحول ذوى التدقيق، ولوفور ما بها من الرؤوس لم ينفرد برياساتها رئيس ؛ لكثرة ما بها من الناس ، لم يتعين لسياستهم راس ، فاتفق أكابرها لضبط أمور المسلمين على تقديم شخص يدعى حمارتكين ، فبعد حروب يطول شرحها ويهول برحها ، ويجب قرحها ، ويستحب طرحها، أخذوها عنوة بعد ما قاسوا جفوة ،

فاستصفوا أرباب الحرف ومن تعلق من صنعة بطرف ، فكانوا نحوا من مائة ألف بيت . أو يزيدون إن عددتهم وعديت ، ثم ميزوا النساء والأطفال وكانوا كعدد الحصى والرمال ، ففرقوهم على ذلك العسكر الثقيل ، فكفى الحقير منهم والجليل ، ثم فصلوا بالحسام المفصال ، مدارع ذوات ما بقى من الرجال .

ثم أرادوا حصر من قتل وإقامة عدد من بتك وبتل ، فكان حصة كل فتاك قتال ، على أن عددهم أكثر من القطر والرمال ، أربعة وعشرين مقتولا، ثم فعلوا بالبلد كعادتهم الأولى ، فهدموا أسوارها ومحوا آثارها ، وأجروا من بحر الدماء أنهارها ، فانمحى العلم والعلماء ، واندحى الفضل والفضلاء واستشهد الرؤساء والكبراء ؛ وناهيك بالقطب الولى الشيخ نجم الدين العكبرى.

وتوجه جنكزخان من سمرقند قاصدا السلطان ، ومر من أطوار عسكره بكل أخشب[1] حتى أناخ على ترمذ ونخشب[2] ، فامتنعتا عليه ، ولمناعتهما لم تلتفتا إليه ، وكانتا كثيرتى العدد والعدد غزيرتى المدد من مدد ، وهما من أمهات البلاد مملوأتان من آلات الجهاد ومقاتلة الأجناد ، فأهلك ناسهما ، وسقاهما من خمر التشريد كاسهما ، فلم يبق لهما فيا[3] ، ولم تغن العدد والعدد عنهما من الله شيئاً .

ومن غريب ما وقع من البدع ، أنه أمر بأهل ترمذ أن يقتلوا عن آخرهم مع أهلهم وعشائرهم ، ولا يبقى فيها على أحد ، وأرصد على ذلك الرصد ، فاتفق أن امرأة من المخدرات تخجل الشموس النيرات ، قبضوا عليها وتقدموا بإراقة دمها إليها ، فتشفعت فما أفاد ، وتضرعت فما زاد إلا

---

(١) الجبل .

(٢) نخشب : من مدن ما وراء النهر بين جيحون وسمرقند . معجم البلدان (١١٩٦٣) .

(٣) الغنيمة والأملاك .

العناد ، فلما أسلمت وتلوها للجبين ؛ وعلمت أنه جاءها الحق المبين ، قالت لأولئك الكفار : لا تقتلوني يا حضار وأنا أفتدى نفسى منكم بعقود من اللؤلؤ كبار ، فأنهوا القضية إليه وعرضوا ما قالته عليه ، فقال : اتركوها ثم بما قالت طالبوها ، لننظر أصدقت أم اختلقت ؛ فأطلقوها وبتقاضى اللؤلؤ أقلقوها، فقالت : لم أفه بزور ولا دليتكم بغرور ، وإنما اللؤلؤ كان عندى وحين استخلصتم مالى كان فى يدى فخفت منكم فابتعلته ، وتبّ لفعل صنعته ، فأمهلونى حتى أتبرز ويخرج منى ذلك المخرز .

فأنهوا كلامها إليه وعرضوا أمرها عليه ، فقال : ابقروا بطنها ، وانظروا قطعها ، فإن وجدتم شيئاً فهو لكم وإن كانت كاذِبة فقد استحقت فعلكم، فشقوا بطنها البطين واستخرجوا منه الدر الثمين، فلما رأوا صدقها وحققوا نطقها ، وأمرهم بشق بطون جميع القتلى وتفتيش ما طرحوه من جبال الأشلا ، فلم تنج رؤوس الروس من المثلة بعد القتل ، ولا بطون الصدور من ظهور التنكيل أثر البتل .

ثم أمر بهدم الحصون بعد ابتذال المال والعرض المصون ، فمحت الديار ولم يبق فيها ديار ؛ ثم عبر من جيحون إلى خراسان ؛ وجعل نصب عينيه ممالك السلطان ؛ وتوجه إلى بلخ وهى إحدى معاقل الإسلام ، وفيها من أمم الأنام ما لا يدرك ضبطه سابق الأقلام ؛ بل يخرج عن حصر الأوهام ولا يحصيه إلا الملك العلام ، وكان السلطان قد انشمر عنها ـكما ذكر ـ إلى نواحى طبرستان ، فوصل بتلك البحار الطامية فى ثمان عشرة وستمية ، فخرج إليه الأعيان وطلبوا منه الأمان ، فأجاب سؤاليم بما يصلح حالهم ، ثم اختشى من السلطان جلال الدين بن المرحوم قطب الدين ، فلم يركن إليهم ولا عول عليهم ، فأمر بإراقة الدماء وهدم البناء ؛ وإحاطتهم بدائرة الفناء ، فأفنوهم عن آخرهم ، وساووا بالحضيض بقاع عمائرهم .

ثم أرسل ولده تولى خان إلى محاصرة طالقان[1] فعصت عليه ، ولم تسلم قيادها إليه فاستمرت فى الحصار مدة ، وأذاقها لباس الباس والشدة ، إلى أن أخذوها وأبادوا خلقها ودكوها ، ثم إن جنكزخان الكافر الخوان ، معدن الكفر والطغيان ، لما استوبل هواء خراسان فألوى إلى بلاده وترك تولى خان من أولاده وولاه خراسان ، وهو محاصر طالقان وأقام فى ممالك إيران[2] ، من كفار أمرائه أميران ؛ أحدهما يدعى : سنتاى وهو من قبيلة الجفتاى ، والآخر يدعى : يما وهو من الكفار اللؤما ، وترك معهما من الكفار الأراذل والتتار الأسافل ثلاثين ألف مقاتل .

فوصلا إلى رواه ، ووضعا السيف فى الأئمة الهداة ، وابتدءا فى القتل والنهب ، والفتك والسلب ، والقهر والأسر ، والقسر والكسر ، ثم أخذا فى الائتلاف طريق الائتلاف ، وذهب كل منهما للاختلاف فى الفساد على مخلاف، فصالا وجالا ، وأوسعا فى الدمار والبوار مجالا ، وخاضا فى دماء المسلمين واجتهدا فى إهلاك الإسلام والدين ، وخلا لهما الجو فباضا وصفرا، وكان السلطان قطب الدين قد أخلى الدنيا من الملوك والكبرا ، فلم يثبت لهما مقابل فضلا عن مخاتل أو مقاتل ، فأهلكا الدين وأبادا وتصرفا فى نصرة الشرك على الإسلام كيفما أرادا ، فاستخلصا جوين[3] وطوس[4] ، وأعدما ما

---

(١) طالقان : مدينة فى الديلم قرب قزوين ، إليها ينسب الصاحب بن عباد . معجم البلدان (٧٨٣٧) .

(٢) إيران : إيران شهر وهى بلاد العراق وفارس والجبال وخراسان يجمعها كلها هذا الاسم . معجم البلدان (١١٧٩) .

(٣) جوين : اسم كورة جليلة نزهة على طريق القوافل من بسطام إلى نيسابور ، تسميها أهل خراسان كويان فعربت فقيل جوين . معجم البلدان (٣٣٧٣) .

(٤) طوس : مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ فتحت فى أيام عثمان ابن عفان رضي الله عنه. معجم البلدان (٨٠٠٧) .

بهما من نفائس ونفوس ، وحام وخيوشان واسفراين ومازندران وآمل وقومس[1] وتلك البلدان فمحوا من كتب كتائبها أسطارها وأطفؤا منارها ، وأظهروا من صفة الجلال والقهر آثارها ، وأجروا من الفتن كالدماء بحارها ، وأضرموا من الشرور نارها ، كل ذلك قتلا ونهبا ، وسبيا وسلبا ، وهدما وإحراقا ، وصدما وإرهاقا ، وردما وإغراقا .

ثم بلغهم أن حريم السلطان جلال الدين فى قلاع آمل آمنين ، فقصدوها وحاصروها ، ورصدوها فقل ناصروها فاستولوا عليها ، ووصلوا كما أرادوا إليها فبقروا وفتكوا ، وبَرَوا وبَتَكوا ، وسبوا وسبكوا ، وسفوا وسفكوا وكووا وشووا ، وغووا ولووا ، وعووا وما ارعووا[2] .

ثم إنهم صادفوا العكس الزمان وانقلاب الدهر على السلطان ، وسوء التدبير وشؤم الحظ المبير ، وهم فى بعض المسير من غير مخبر ولا معلم فى سدفة ليل مظلم ، حريم السلطان خوارزمشاه لأمور قدرها الله مع والدته وجواريه وبناته وسراريه ، وكان لشدة ما نابهم من الزمان قد ضاق عليهم المكان ، وتغير بل تنكر لهم الكون وقل عنهم النصير وقل العون ، وخافوا الابتذال بعد الصون ، فتركوا ما هم فيه من مكان ، وقصدوا البعد عن خراسان ، فتوجهوا إلى أطراف أصفهان[3] ، ومعهم من نفائس الأموال والجواهر وأنواع المفاخر والذخائر ، ومصونات الخزائن ومكنونات المعادن، ما لا يعلمه إلا مانحه ، ومن الكنوز ما ينوء بالعصبة مفاتحه ، وما لم يجتمع لسلطان قط ولا ضبطها قلم ديوان ولا خط ، فتباغتوا مواجهة وتواجهوا

---

(١) قومس : هى كورة كبيرة واسعة تشتمل على مدن وقرى ومزارع وهى بين الرى ونيسابور . معجم البلدان (٩٩٨٧) .

(٢) أى ما كفوا عنهم .

(٣) أصفهان : مدينة فى وسط إيران بين طهران وشيراز . معجم البلدان (٧٢٩) .

مباغتة ، وتباهتوا مشافهة وتشافهوا مباهتة ، فوقعن فى شبكة الصيد ، وأحاطت بهن دائرة الكيد ، وتورطن فيما فررن منه ، وتربطن بأوهاق ما نفرن منه ، وناداهن لسان الحظ ، وهاتف الطالع الفَظّ :

وإذَا أَرَاد اللّــه إنفــاذَ القَضَــا ... وظهورَ قَهْرٍ للبصَائِر باتِـلا[1]
جَعَلَ الدواءَ لِذَاكَ داءً مُمْرِضَـا ... وفَوائِد التِّرياق سُمًّـــا قَاتِـــلا
والكَوْنَ خِصْماً والمكانَ مناَقِضـاً ... والعَيْشَ مَوْتاً والصَّدِيقُ مُقَاتِـــلا

فلم يشعرن إلا وقد وقعن من نيران الفتن فى تنور ، وتورطن من بحار المحن فى دردور ، وتبسمت إلى بكائهن ثنايا المنايا ، وتكالمت على جباه مصابهن عقود الرزايا ، فظفرت حامية الكفر بذلك المغنم البارد ، ولم يصدر من حلقة صيده شارد ولا وارد ، فحازوا تلك المسترات ، ونزل إلى حضيض قنصهم من سماء المنافسة الشموس النيرات ، فهتكوا أستارهن ، وخربوا ديارهن ، وضبطوا أشعارهن ودثارهن ، وأحرزوا ما معهن من كنوز المعادن ، ونفائس المكامن وذخائر الخزائن ، ثم أضافوهن إلى زبانية غلاظ واحتفظوا بهن أشد الاحتفاظ وساقوهن إلى بلاد التتار ، مهتكات الأستار عاريات حافيات حاسرات ماشيات .

وأمروهن أن يجتمعن كل ليلة عندما ينشر الظلام ذيله فى كل منزلة ، وصباح كل مرحلة ، ويقمن على أنفسهن العزا وينحن بما تقدم ويبكين بما جرى ، ويعددن على خوارزمشاه ، ويذكرن ما قدره الله عليه وقضاه ، وينعين ما كن فيه من النعم ، وما صرن إليه من الهوان والنقم وليدمن على هذه الطريقة حتى يقطعن من سفرهن طريقة ، ويصلن بجنكزخان على ذلك الامتهان والذل والهوان ، فيرى فيهن رأيه من نكال ونكاية ورحمة وعناية ،

---

(١) باتلا : أى قطعه .

فامتثلن ما أمروهن به فكن ينبهن النيام ، ويبكين المتنبه ، واستمررن على هذه الحال فى الخزى والإذلال والمشقة والابتذال ، بعد ذلك الصون والدلال ، يصدعن بنحيبهن الجبال ، ويتفطرن بالنظر إليهن أكباد الصخور والتلال .

ثم أن تولى لما أخذ طالقان ، وأهلك أهلها بسيف الطغيان ولم يدع فيها من يتنفس ، وهدم إلى الأرض بنيانها المؤسس ، توجه جانب من بلاد العجم، وأهلك ما شاء الله تعالى من خلائق وأمم ، فصار فى أحد الجوانب يعبث ، وكل من سنتاى الخبيث ويما الكافر العثيث فى جانب يبيد المسلمين ولا مغيث، فدكوا قزوين وهمذان[1] وصكوا أران وبيلقان ، وأغاروا على ممالك أذربيجان .

وبلغهم أن السلطان جلال الدين له فى سجاس[2] جماعة مجتمعين ، مقدمهم السلاحدار بكتكين ، وفيهم من الأعيان كوحبو شاخان ، فتوجه إليهم بما فبدد شمل أولئك الزعما ، وأبادهم وفرقهم وشتتهم ومزقهم ، ثم غاروا على غالب عراق العجم ، فأوسقوا القفار بالضرم ، وأوسعوا البحار بأمطار الدم ، وملؤا الوجود بالعدم ، ثم قصدوا أردبيل[3] ، وجعلوا أهلها ما بين أسير وقتيل ، وكانوا فى أول المرور ، قد صالحوا أهل نيسابور ، وانتقلوا إلى مَرْ، ومنها وراودوا أهلها عنها ، فأغلقوا أبوابهم وأقلقوا جوابهم ، فحطموا عليها ، ودخلوا إليها ، وحكموا فى أهلها السيوف وكان شهر الصيام ففطروهم على كاسات الحتوف ، ونقل إلى جوار الله تعالى منهم المئين والألوف ، فضبطوا من أمكن ضبطهم من القتلى ، واستسعد بنيل الشهادة من الشهدا ، فكان ألف

---

(١) همذان : مدينة إيرانية جنوب غربى طهران . معجم البلدان (١٢٧٤٥) .

(٢) سجاس : بلد بين همذان وأبهر وهى من مدن أذربيجان . معجم البلدان (٤٣٣) .

(٣) أردبيل : من أشهر مدن أزربيجان وهى مدينة كبيرة جداً يتسرب فى ظاهرها وباطنها عدة أنهار كثيرة المياه . معجم البلدان (٤٣٣)

ألف نسمة ، وثلثمائة ألف وثلاثين ألفا مكرمة ، وكل هذه الفتنة والفترة[1] فى سنة ثمان عشرة ، عامت الدنيا فى الدماء عوما، وكانت مدة نحو تسعين يوما.

ثم توجهوا إلى شروان[2] وأفاضوا من دماء البحار الطوفان ، ودخلوا من الباب الحديد واتصلوا من الدست[3] بذلك الشيطان المريد ، فتيقظ الناس من الفكرة وأفاقوا مما كانوا فيه من السكرة ، وتصوروا أنها سحابة صيف انقضت ، أو نسمة أزمنة هبت بارقة أو مضت ، ولكن احتاطوا واستعدوا وتحفظوا واستمدوا ، وحصنوا الحصون والمعاقل وجمعوا الجنود والجحافل ، فلم يكن بأسرع من إيابهم وتعاطى ما كانوا عليه من دأبهم ، والشروع فى أعمال حرابهم بخرابهم ، وأخذهم فى ضروب ضربهم وضرابهم ، واستقر تولى فى ممالك العجم ، وهو أبو هلاكو الكافر الأغتم[4] ، فوصلوا إلى شيزار وقد استعدت للحصار واستمدت للمناوشة والنقار ، فأخذوها عنوة وزحفا ، وقتلوا منها مما أمكن ضبطه سبعين ألفا .

ثم توجهوا إلى طوس فأزهقوا ما بها من نفوس ، ثم إلى سائر القلاع بالحضيض واليفاع ، فاستولوا على الكل قهرا ، وأخذوه عنوة وقسرا ، وسعوا فى إحلال البوس وإزهاق النفوس ، ثم إلى موقان[5] ولم يبقوا بها أحدا كائنا من كان ، وعم القتل المبير كل صغير وكبير ، ثم حل أولئك البور ببلدة نيسابور ، فكافحت بعدما كانت صالحت وتحصنت ، بعد أن أذعنت واعتمدت على عددها واستندت إلى عددها ، وبرجالها استعانت بعد أن كانت قد دانت ،

---

(١) الإنكسار والضعف .

(٢) شروان : مدينة من نواحى باب الأبواب الذى تسميه الفرس الدربند بناها أنوشروان فسميت باسمه . معجم البلدان (٧٠٨١) .

(٣) الدست : جمع دسوت (كلمة فارسية) تعنى المجلس .

(٤) الأغتم : أى به نقص لا يفصح قى كلامه .

(٥) موقان : ولاية فيها قرى ومروج كثيرة . تحتلها التركمان للرعى فأكثر أهلها منهم . معجم البلدان (١١٧٢٤) .

ولانت واستكانت ، وكان فيها من آلات الحرب ورجال الطعن والضرب ، مالا يحصى ولا يبلغه الاستقصا ، فكان فيها من المجانق[1] المرسلات الصواعق على أسوار الحصار ، ثلثمائة منجنيق أصغرها كالغضبان فى المقدار ، خارجا عن المكاحل والمدافع ، المهلكات بالصواعق الصواقع ، ومن رماة القوس القصير المنفذ حكمه قاضى التقدير ثلاثة آلاف بطل ، كلٌ أرمى من بنى ثعل[2]، وأما عدد الضارب والنابل والقاتل والمقاتل والرامح والناطح ، والصارع والقارع ، والحاذف والجارف ، والخاطف والقاطف ، والناهب والسالب ، فالضابطون فيه تاهوا وما يعلم جنود ربك إلا هو .

فوجه التتار الهمة إليها وأخنوا كالقضاء المبرم عليها ، وحمى الوطيس وخاطر بنفسه كل خسيس ، وبذل مهجته من الغزاة كل نفيس ، فقتل من أهل العدوان طغاجارخان زوج ابنة جنكزخان ، وكان من عتاة الكفار ، المعتبرين بين التتار فحنق العدو لذلك وسدوا المسالك ، وسمع بذلك تولى الكافر الموغولى وكان فى بعض الجوانب ، مشغولا بالدواهى والمصائب ، ففار دم قلبه وتأججت نيران كربه ، وتأسف لفقد ختنه ، وثار غبار إِحَنِه[3] .

فتوجه من فوره بحنقه وحوره ، ونزل على نيسابور وحل بالبوار على أولئك البور ، وزحف بالعساكر وتقدم بالطعن والضرب كل كافر ، فلم تمض غلوة حتى أخذوها عنوة ، ودخلها من كفر من التتر يوم السبت خامس عشر صفر ، سنة تسع عشرة وستمائة من الهجرة ، وأعطى تولى لأخته ذلك عوضا عن زوجها الهالك ، وقال لها : تسلى عن ذلك المفقود بهذا الموجود ، وتحكمى فى أهل البلد بما ترتضيه من سرور ونكد ، وتصرفى فى الأموال والأرواح فمهما تريه فهو لك مباح .

---

(١) المجانق : مفرد مجنيق وهو آلة حربية كانوا يرمون بها الحجارة (كلمة يونانية) .

(٢) بنى ثعل : قبيلة بنجد .

(٣) أى ثار غبدا لحقده وبغضه .

فأمرت أن لا يبقى على ذى روح ، وأن تجرى السيول من الدم المسفوح ، فأطلقوا فى ميادين الحتوف أعنة[١] صوارم السيوف ، فجدت جباه الجياد وجادت بجود الجد على أجياد الأجواد ، وصارت كألسن الشعراء النقاد تهيم من النظم والنثر فى كل واد ، فمحوا عن لوح الوجود ، بلسان شواظ السيف ذات الوقود سطور ذوات ذلك السواد الأعظم ، وكتائب تلك الخلائق والأمم ، وزادوا فى الاشتطاط حتى قتلوا الكلاب والقطاط ، ثم أمرت أن تجمع رؤس أولئك الجمهور ، ويميز رؤس الإناث من الذكور ، فميزوا رؤس الرجال عن قمم ربات الحِجَال[٢] ، وطرحوا كل كاشيةً[٣] فى ناحية ، فصارت الرؤس كرواسى الجبان ، وتلك الدور والقصور كالأعصر الخوال ، ولم يخلص من قطع الأرؤس سوى أربعة أنفس كانوا من ذوى الحرف فجذبتهم المهارة من سفح بحر الفناء إلى الطرف .

ثم ركبت تلك البسوس[٤] ، ووقفت على تلال الرؤوس فلم تنطفئ نارها ولا بردا وارها ، وزعمت أنها لم تستوف ثأرها ، وأن دود ترابها من علق تلك الأمم ما تكفت وغيظة غيظها بزرائر السيوف ما تشفت ، واستغاثت بالرجال وصاحت بلسان الحال ، وأنشدت :

وهَبْ أنَّ النَسَاءَ سَلَلْنَ سَيْفَا فَصُلْنَ وجُلْنَ كالفَحْلِ الغَيُور
فَزَلْزَلْنَ الجِبَالَ فَطِرنَ خَوفَاً يُضَاهِينَ السَّحَابَ على الطُيور
وَصَارَ لَسَفْكِهِنَّ البَرُّ بَحْراً أيُغْنِيهُنَّ ذَاكَ عَنَ الأيُور[٥]

(١) أعنة : أى اللجام أو الحبل الطويل .

(٢) ربات الحجال : جمع حجل وهو موضع تزين العروس .

(٣) كاشية : أى قطعة من الجسد .

(٤) البسوس : حرب جرت بين تغلب وبكر فى الجاهلية . أثارتها امرأة تدعى البسوس ، قتل ناقتها كليب بن ربيعة التغلبى فقتله جساس بن مرة البكرى . فقام المهلهل يطلب بثأر أخيه كليب ، ودامت الحرب أربعين سنة . اشتهرت بشعر المهلهل فى رثاء أخيه.

(٥) الأيور : حر النار والشمس والعطش .

فأمرت بهدم البلد وإحراق ما فيها من آلات وعدد ، فدكوها دكا وأعدموها سبكا وسفكا ، وتصرفت أيدى النوائب فيها فتكا وبتكا ، ثم أن تولى لوى العنان وقصد هراة[1] من خراسان ، فأخذها بالأمان ولم ينج من ذلك الطوفان سوى تلك الكورة[2] ، واستمرت تحت أوامرهم مقهورة ، وأمهات بلاد خراسان ومقر سرير السلطان ، كانت أربعة أمصار كل ذات اعتبار ، جليلة المقدار نيسابور ، وقد صارت بور ، وبلخ وقد كسيت من البوار ثوب سلخ ، ومروا لرود وقد انمحت من الوجود ، ولم يفز بالنجاة إلا بلدة هراة وسائر الأمصار شملها البوار ، ولبست من خلع الدثور والدثار ، وكل منها مصر جامع ، وبرها بحر واسع وبحرها كصدر البر مداه شاسع .

وأما القرى والقصبات والرساتيق والمزدرعات[3] ، فأكثر من أن تحصر أو تضبط بحساب دفتر ، فأبيد ذلك كله وأبير فالحكم لله العلى الكبير ، كل ذلك فى أدنى مدة وأوهى رقدة وما ذكر ذرة من طور وقطرة من بحور ، فسبحان من لا يسئل عما يفعل .

ثم إن جنكزخان الهامة الهامية ، والفتنة الطامة الطامية ، لما علق به المرض وحصل له فى خراسان العرض ، رجع إلى بلاده واستمر مرضه فى ازدياده ولم يزل على ذلك حتى أورد سبيل المهالك ، وتسلم روحه الخبيثة مالِك[4] ، وحين أيس من الحياة وقنط من رحمة الله ، جمع المعتمد عليه من أولاده المشاركين له فى عتوه وفساده ، وهم جفتاى وأوكتاى وأوليغ نوبين

(١) هراة : مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة محشوة بالعلماء ومملوءة بأهل الفضل والثراء . معجم البلدان (١٢٦٦٤) .

(٢) الكورة : القرية الصغيرة .

(٣) الرساتيق : القرى الصغيرة . والمزدرعات : الأماكن المزروعة والحقول .

(٤) أى ملك الموت .

وجرجاى ، وكاكان وأورجان ، وأوصاهم بوصايا وطرائق فى سياسة الرعايا، حافظوا عليها وتناهضوا إليها ، فثبت لهم من ملكهم أساسا لم ينهدم ، وأقام بنيانا إلى يومنا لم ينخرم وعروش قواعد أركانها لم تتثلم[1] ، مع كثرة عددهم ووفرة مددهم ، وشكاستهم وشراستهم ، وشماستهم وتعاستهم ، وغلاظتهم وفظاظتهم ، وأختلاف أديانهم واتساع بلدانهم ، وهلك الطاغية جنكزخان وانتقل إلى الدرك الأسفل من النيران ، واستقر فى لعنة الله وعقابه، وأليم زجره وعذابه فى رابع شهر رمضان الشامل بالفضل والإحسان والبركة النامية الهامية سنة أربع وعشرين وستمية ، فى سُرَّة ملكه المشوم وأعظم أمصاره أيميل وقوفان وقراقروم[2] .

واستمرت بعده الفتن والشرور ، والمحن تغير على ممالك الإسلام وتبير شرائع خير الأنام ، وتثير غبار الإفساد والمفسدين فى وجوه سنة سيد المرسلين ، وتحصر جنود الإسلام وتقص جيوش العلماء الأعلام ، وتنقص أطراف الأرض وتنقض أركان الدين بعضها على بعض .

وناهيك يا مولانا السلطان بفتن هلاكو تولى بن جنكزخان ، وبعده أبغا ابن هلاكو الذى تجبر وطغى وتكبر وبغى ، وبعده ابنه أرغون ، وبعده ابنه قازان المفتون ، واستمرت بحار الفتن منهم تؤثر عنهم ومرجهايمور ، إلى أن نبغ الأعرج تيمور فأهلك الحرث والنسل واختلط المباح باليسل[3] ، وحل بالعالم الباس وفسدت أحوال الناس ، وإنما ذلك كله بفساد الراس ، ومن جملة فتنهم وطعنهم فى طعنهم ، جالوا فى معركة وصالوا فى دست بركة ، فقتلوا فى مثل حرب البسوس وقطعوا فى ناحية من الروس ، جملة أرادوا ضبط عددها بعد أن أبانوها عن جسدها ، فلم يقدروا أن يحصروها .

---

(١) أى لم تتكسر .

(٢) قوفان : قرية من قرى دمشق . معجم البلدان (٩٩٨٣) .

(٣) الحرام .

فرسم لتلك البغاة سلطانيا أن يقطع من الرؤوس آذانها ، يقطعون من كل رأس أذنا ، ولتكن الآذان اليمنى فجدعوا آذان بعض الرؤوس وشكوها ، وفى خيوط سلكوها ، ثم فى قلائد ربطوها ، وبعد ذلك ضبطوها فكانت نحو مائتى ألف أذن مجدودة ، وسبعين ألف أذن معدودة .

وإنما ذكرت يا ملك الطير ؛ أمثال ما جرى من الشر والخير ، وجلوت عن مرآة ضميرك المنير صورة ما مر فى الزمان المنير ؛ وما فعله من ملكه زمام الاقتدار ، وأمهله سلطان السلاطين الذى يخلق ما يشاء ويختار ، وصرفه فى بلاده وعباده وبين له طريق صلاحه وفساده ، وأخبركم أيها الملوك والحكام بأموركم فى دنياكم ، وجلا صور أحوالكم على أعين أبصاركم ، وبين مزاياكم فى مراياكم ، فقال ﴿**وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ**﴾ [الأنعام:١٦٥].

فانظر ما فى هذه السير من الحكم والعبر ؛ لتعلم أن الدنيا محل الغير ، ومحك العقول والفكر ، والحال بها هدف لسهام القضاء والقدر ، مبتلى بكل خير وشر ونفع وضر ، غافل عن مواقع الحذر آمن وهو على شرف الخطر ، مقيم وقد جَدَّ به السفر مناقش بما مضى من أنفاسه مما حلا ومر ، ومحاسب على ذوات ما اكتسبه ، مطالب بالفتيل والقطمير[1] مما ارتكبه .

فلما وصل الحجل فى الكلام إلى هذا المقام ، قبل العقاب بين عينيه وزاد قربه لديه ، وأفاض خلع الإنعام عليه وقال : صدق عليه أفضل الصلاة والتسليم حيث قال((كلمة الحكمة ضالة كل حكيم))[2] .

---

(١) أى مطالب بكل صغير وحقير .

(٢) الحديث : ذكره المتقى الهندى فى كنز العمال (٢٨٩٣٦) وعزاه للعسكرى فى الأمثال من طريق أبى هريرة ﷺ بلفظ ((كلمة الحكمة ضالة كل حكيم ؛ فإذا وجدها فهو أحق بها)) .

ونطق بالحق من قال : لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال .

فأهل التحقيق وذوو النظر الدقيق ، راقبوا المعانى ولم ينظروا إلى القوالب والمبانى ، فإن سليمان عليه السلام وهو ملك الجن والأنام ، والوحش والطير ، والهواء والهوام ، ونبى مرسل ، وملك ذو فضل وسلطان الفصل بالعدل ، استفاد النصائح من نملة ، وجمع هدهده مع ملكة سبأ نملة ، ويوجد فى الاسقاط[1] ما لا يوجد فى الأسفاط[2] ، ولقد ينطق بالفوائد من هو كافر وجاحد ، فيؤخذ من أقواله ولا يقتدى بأفعاله .

وقد قيل : إن الحسن البصرى[3] رحمة الله عليه ، دخل صبىّ مسجده وصلى بين يديه ، فرآه لا يتم سجوده ولا يرضى بصلاته معبوده ، فدعاه وخاطبه وأنكر عليه وعاقبه ، وقال له : تمم سجودك ترض معبودك ، فقال : يا شيخ المتقين هذه سجدات شخص من المؤمنين ، لو سجد إحداها إبليس لآدم لما كان من الملعونين ، ولو سجدها فرعون مرة لكان من المسلمين ، ولم يصر من أهل العناد المطرودين .

وقيل : ورأى يوما صبيا ومعه سراج وهو سالك فى منهاج ، فسأله عن نار، وما فيها من أنواره ، من أين أخذها وكيف افتلذها ، فلم يجاوبه إلا بإطفاء السراج ، وسؤاله أين ذهب ذلك النور الوهاج ، قل لى أين ذهبت تلك الأنوار ، أقل لك من أين جاءت تلك النار .

---

(١) الاسقاط : الردىء من متاع البيت .

(٢) الأسفاط : الغالى من متاع البيت .

(٣) الحسن البصرى ؛ من كبار أعلام الزهاد والنقات والتابعين ، ولد بالمدينة وسكن البصرة . إمام أهل البصرة وحبر الأمة فى زمانه . وكان أعلم الناس بالحلال والحرام فى زمانه ، وكان ورعاً فقيهاً زاهداً . فضائله ومناقبه كثيرة جداً . توفى سنة (١١٠هـ) . سير أعلام النبلاء (٦٠٠) .

ثم إن العقاب ولّى الحجل ما تحت يده من رقاب ، وقدمه على سائر الخدم ، وصنوف الطير وأجناسه من الأمم ، وجعله الدستور الأعظم ، والوزير المقدم المكرم .

وفى هذا المقام ، أمسك الحكيم حسيب عن الكلام ، وختم ما افتتحه من الحكم والأحكام بالدعاء والثناء والصلاة والسلام .

قال الشيخ أبو المحاسن ؛ المخجل بأدبه امرأ القيس[1] ، وأبا فراس[2]: فلما انتهى الحكيم فى مقترحه ، وما قصده من بيان محاسنه ومِلَحِه ، إلى هذا المحل وفصل من فضله ما أجمل من جمل ، نهض الوزير وقبل قدميه ، واعترف له بالفضل المنعم به عليه ، وأنه مالك أزمة الإنشاء ، وملك الكلام يصرفه كيف شاء وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وكما أنه شيخ المنقول وأستاذ المقول ، فمن أنوار ألفاظه تنير العقول ومن كنوز عباراته تستخرج جواهر المعقول ، وأما أخوه الملك فطار بسروره به عن سريره ، واتخذه فى مهام أموره مقام أميره ، ثم أدت آراء فكرته أن يستعمل أخاه لكشف كربته ، ويمشى فى السعى بينه وبين إخوته لرتق ما انفتق ، وسد ما خرقه سيل الحسد فانبثق ، فامتثل أمره العالى ونهض بأمر الله المتعالى ، وأنفق من جواهر أفكاره فى سوق المناصحة الرخيص والغالى ، ورصع ما استخرجه من يواقيت تلك من عباراته بما يستعبد عقود اللآلى ، وتعاطى أسباب الإصلاح وساعده لحسن النية وخلوص الطوية السعد والنجاح :

---

(١) امرؤ القيس ابن حجر الكندى ملك بنى أسد ؛ أشهر شعراء الجاهلية ، وإمام الشعراء، وحامل لوائهم . صاحب المعلقة الأولى . البداية والنهاية (٣٤٥/٧) .

(٢) أبو فراس : ابن عم سيف الدولة الحمدانى ، أمير حلب ، وكان أميراً لإمارة منيح . الشاعر الأمير الفارس شعره من أجمل وأحسن أشعار العربية . كان يضارع الشاعر الكبير المتنبى . البداية والنهاية (٢٩٧/١١) .

وهَذَّبَ فى الفَضْل ما رَتَّبَه ... ورَتَّبَ بالفَضْل ما هَذَّبَه
وأعْجَبَ ذَا اللُّبَّ ما شَادَهُ ... فَأثْنَى عَلَيْهِ بمَا أعْجَبَهُ
وأغْرَبَ فى السَّبْق إشْرَاقِهِ ... فَللَّهِ ذَا السَّعْدِ مَا أغْرَبَهُ
فَمَا شَذَّ بالصِّدْق عَنْ نُصْحِهِ ... ولا شَذَّ خِلٌّ لِمَا شَذَّبَهُ

فاستمال الخواطر النافرة ، وألطفاً بزلال ألفاظه العذبة شواظ تلك النائرة، وسكن بنسيم ملاطفاته قتام الأخلاق الثائرة ، فاطمأنت القلوب ، وطهرت من غش التشاحن الجيوب[1] ، واتصل بالمحب المحبوب ، وحصل الأمن والأمان ومساعدة الزمان ، ومعاضدة الإخوان ومصافاة الخلان ، وطيب العيش والمكان ، وأفضل من هذا جميعه شفقة السلطان ، والاستقامة على الإسلام والإيمان .

ونسأل الله تعالى إتمام نعمه وإسبال ذيل إحسانه وكرمه ، واللطف فى القضا والعفو عما مضى ، والمعاملة بإحسانه الجزيل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، والحمد لله رب العالمين ، و صلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين ، وعلىا آله الأطهار وصحابته الأبرار ، من الأختان والأصهار ، والمهاجرين والأنصار ، وسلم تسليما يطيب الأعطار ويتمسك بأذيال عرفه خياشيم الأزهار فى الأسحار ما دامت الأعصار ، ودارت الأدوار ، وترادف الليل والنهار ، وحشرنا فى زمرتهم مع المصطفين الأخيار، إنه كريم ستار حليم غفار .

قال مؤلفه رحمه الله تعالى : نمقه مؤلفه ولفقه مصنفه ، فقير عفو الله تعالى من غير تردد ولا تفكر ولا تعمق فى تدبر ، مع توزع البال أحمد بن محمد بن عرب شاه الحنفى ، سامحه الله تعالى وعامله بما يرتضيه تفصيلا وإجمالا لا بما يقتضيه عدلا وجلالا فى أواخر شهر ربيع الأول سنة خمسين وثمانمائة .

أحسن الله خاتمتها وعاقبتها ، وجعل آخرها خيرا من أولها بمنّه وكرمه ، آمين .

---

(١) الصدور .